كَسْبَان حِتَّة

رواية

فؤاد قنديل

الدار المصرية اللبنانية

كَسْبَانِ حِتَّــةِ

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت تليفون: 3910250- فاكس: 3909618
- ص.ب 2022 - برقيا دار شادو - القاهرة
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

تجهيزات فنية: الإســـراء ت: 3143632

طبع: آمـــون ت: 7944356-7944517

رقم الإيداع: 2383 / 2006

الترقيم الدولى: 1 - 996 - 270 - 977

الطبعة الأولى: ذو الحجة 1426هـ - يناير 2006م

المحتويات

الفصل الأول: غواية الحكايات	٧
الفصل الثاني: كسبان حتة	١٢
الفصل الثالث: الرهان	٢٨
الفصل الرابع: المستقيم والدائرة	٤٠
الفصل الخامس: البداية	٤٦
الفصل السادس: الوليمة والمطاردة	٥٨
الفصل السابع: قل يا شاعر	٧٧
الفصل الثامن: الجميلة والخنازير	٨٨
الفصل التاسع: فكيهة	١٠٣
الفصل العاشر: على فراش المرض	١١٣
الفصل الحادي عشر: اعترف وأرحني	١٢١
الفصل الثاني عشر: ميلاد الأربعة	١٢٩
الفصل الثالث عشر: الظرف الأصفر	١٣٤

الفصل الرابــع عشر : سيدة القصر	١٤٢
الفصل الخامس عشر: حنان العم	١٥٥
الفصل السادس عشر: حرير المسافة	١٦٤
الفصل الســابع عشر: حضرة العمدة	١٧٢

(١)

غواية الحكايات

الصمت الذى تبدو القرية ساكنة تحت خيامه، والهدوء الذى يتسكع فى الطرقات المتربة، والحركة المحدودة للبشر والحيوانات فى نسق شبه متكرر وثابت، مفتقدًا أى صورة من صور الإثارة، حتى لايكاد يشعر به أحد ولا أصحابه أنفسهم، استتبع إغواء الشجر على أن ينضوى فيه، فحفيف الأشجار مهما اشتدت الرياح أصبح وديعًا، يضطرب فى أناة، والأغصان تتراقص فى وداعة ، حريصة على ألا تنكسر منظومة الاستقرار الصوتى المشبوه.

رغم ذلك ففضاء القرية مملوء بالحكايات والأساطير، وكل ما يصلح لإضاءة الليالى المعتمة بالسمر والضحك والرقص والشجار الودى الجميل.. تتعلق فى فضاء القرية الحكايات غير المرئية، وتمضى مع الهواء كأنفاس البشر والموجات الكهرومغنطيسية والأوبئة.. تروح وتجيئ فى صدور المارة وتقف على رؤوسهم، وقد تلحق بذيولهم وتتسلق أجسادهم تلك الحكايات المرمية هنا وهناك، لا يملك الناس الإرادة كى يكفوا عن نسجها، ففتح باب بيت قبل موعده أو بعده

كفيل بخلق حكاية، ونهيق حمار من ناحية معينة، يمتلك أدوات الإلهام لتشكيل قصة وربما عدة قصص حسب الرواة.

حصيرة على مصطبة اكتشفها عابر أمام إحدى الدور، تكفى لفتح الباب وخلق كيان قصصى، يستتبعه بعد ذلك السؤال عن صحة التخمينات.. مرور رجل وبيده كيس أسود لا يبين عما به، مادة كافية لحدوتة وبناء حدث.. ولد صغير عارى المؤخرة أو المقدمة، أو كلتيهما معًا.. أقرع ويتعثر فى بضع كلمات، يطلب من "رحمة" البقال مصاصة وهو يمد يده بقرش صدئ.. لا يجب أن يمر مرور الكرام، وإذا لم تظهر "كايداهم" فى الشوارع لتجمع روث البهائم، فهذه مسألة لافتة للغاية ويجب أن تروى حولها عشرات القصص ذات الذيول والتوابع، خاصة أنها لم تمت حتى الآن على الأقل...

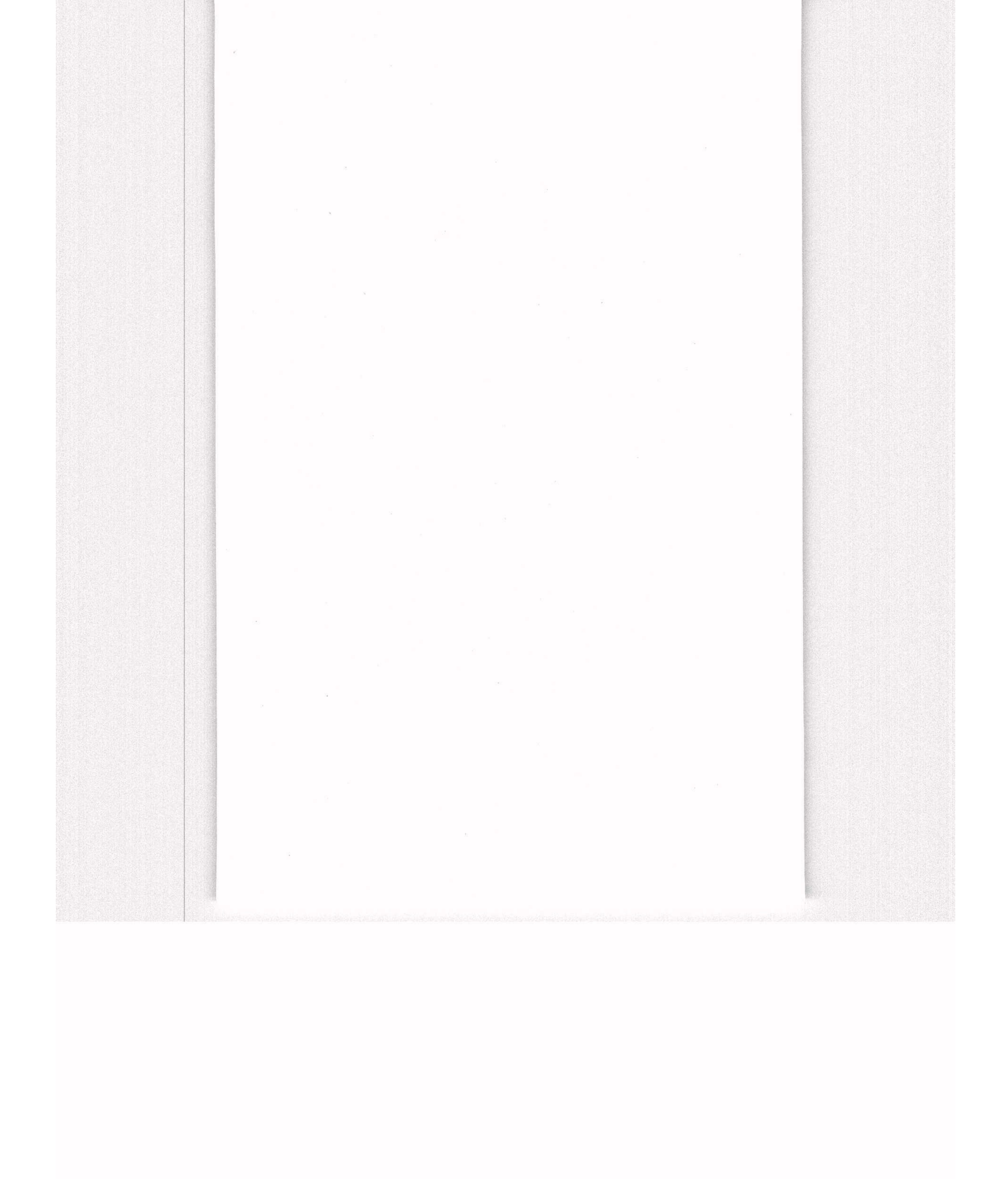
وإذا رأى الناس العنزة الشهيرة تسير وحدها دون صاحبها، وهى تهز المعلق فى رقبتها من شخاليل وأجراس، فسوف يسأل العمدة الخفراء عن السر، وتبدأ سلسلة الربمات والاحتمالات.

وإذا لمح طفل سيارة تهبط البلد مسرعة، وفى إثرها عاصفة كبيرة من التراب كأنها بالونة هائلة من الغبار، ووقفت السيارة أمام بيت من البيوت المستورة، فمن المستبعد أن ينام الكفر قبل أن يعرف، أو يرسل من يحاول أن يعرف، أو حتى يلتقط أية إشارات تساعد المنتظرين فى لهفة على أن تتصرف عقولهم فى الموقف كله.. المهم بداية الخيط.

عندئذ تشرع أحصنة الخيال فى الانطلاق هنا وهناك، تحاول أن تضم المفردات الصغيرة والشظايا المتفرقة بعضها إلى بعض، تستدعى



.. رغم ذلك، ففضاء القرية مملوء بالحكايات والأساطير



البعيد وتستخرج القريب، عازمة فى إصرار على تشكيل عالم متسق، تستكمله بالظنون، وكثيرا ما تلوى القرية أعناق الحوادث والمشاهدات، وتبالغ فى رسم الصورة وفى أحجام الكائنات وأوزانها وما يصدر عنها من أفعال...

لكن ميلاد هذا الصبى وترعرعه اللافت ووقائع حياته العفوية، وعاداته وهواياته وفَّر كثيرًا من الخلق والاختلاق.. لم يعد الفلاحون المجرحة قلوبهم بالحرمان، المجهدة أبدانهم بالعمل اليدوى الشاق، المهددة نفوسهم بالفقر، ليحملوا همًّا إذا حل المساء بحثًا عما يحكى وما يلتف الساهرون حوله، فقد تولى الأمر ذلك الفتى بسيرته وانفجاراته العجيبة حتى غدا الغذاء الحقيقى لهم والمتعة اللذيذة.

إذا لم تقع العيون عليه طوال النهار، فهذا يعنى الشيء الكثير، وعلى الجميع أن يسألوا عن السر فى غيابه، فقد أصبح أهم ملامح القرية.. فى عهدها الجديد، المثير والمسلى.. لقد أصبح ثروة من ثروات البلد ومعلمًا مهمًّا جدًّا من معالمها، بل معلمها الوحيد، لأنها بلا أى معلم على الإطلاق، وغيابه يستفز القرية والأخيلة والظنون لتدور عجلاتها بقوة غير عادية فى بحث أسرار هذا الغياب... هل يكون قد صعد إلى السماء أو غاص فى أعماق البحر، أو هبط إلى سابع أرض؟.. هل ابتلع جحشا أو ابتلعه حوت، هل تعارك مع إحدى الجنيات اللاتى تربطنه به علاقات؟.. هل غضبت عليه فسخطته خفاشًا أو قنفذا؟ هكذا... استسلم الناس لاستقبال الغرائب منذ ظهر بينهم.. ابن خالى...

(٢)

كسبان حتة

هل رأى أحد منكم مثل هذه القطعة البشرية الخشنة؟.. هل التقاها... وتعرف عليها؟، واستشعر الغرابة فى كل ما يصدر عنها من سلوك، فاخضرت فى روحه فجأة حقول الدهشة.

ما أحسب أحدكم طلعت عليه مثل أحوال ابن خالى ولا شيء من منظومته السلوكية العجيبة.. ظلمة حالكة ونور وإشراق.. ثورة وحنان، إقدام وإحجام، مهابة وضعف.. جسارة وخجل.. بطش ورقة، عزة وإباء مع تواضع وحياء.. غنى وفقر، قسوة ووداعة، جمال وقبح، ضحك وبكاء.

لله فى خلقه شئون وشجون وسحر.. وحكمة أيضًا.. الكون يحفل بالتشكيل العبقرى، وأغرب التشكيل أبسطه وأضعفه.

فمن هو ابن خالى، الذى يشبه أباه جدًّا؟.. ليست المشكلة فى البدن وليست الغرابة فى الملامح، ما يثير فيه أو يدهش ليس مصدره الحجم أو الوزن أو توزيعة الأعضاء.. شكله قريب من شكل كل أبناء القرية.. متوسط الطول.. أسمر الوجه.. عريض الجبهة.. ذو شارب كث وكذلك

شعر الصدر والذراعين.. أنفه المدبب طويل بشكل لافت.. مفتول العضل ربما من كثرة العمل.. خشن الصوت.. لا يمتلك أية قدرة على أن يتحدث بصوت منخفض، حتى لو أراد أو حاول، وبالطبع لا يعرف الهمس.. لاشيء فيه يلفت النظر أو يستوقف المدقق، عادى إلى أقصى الحدود.. بسيط وباسم ولا مطالب له على الإطلاق، فما الذى يجذب الناس إليه؟ ولماذا إذا رآه الكبار والصغار تبعوه واقتفوا أثره وظلوا وراءه، حتى لو ردهم عنه؟...

لم يدر بخاطرى البتة أن أسيل لعابكم أو أفتح شهيتكم لمتابعة سطورى عنه، لكنى أحاول أن أبحث عن سبب لدهشتى ودهشة من عرفوه، أريد أن أشرككم فى البحث عن سر الحالة.. سر السحر والإبهار.. ما الذى يمكن أن يقدمه رجل فطرى يعيش على السجية، ولا مطمع له فى الدنيا.؟.. لا جبار ولا ظالم، وليس فى يده مصائر ناس ولا حتى أولاده، لا يحمل شرًّا لمخلوق، وينسى بسرعة كل ما حدث حتى لو كان ضده، يحسن معانقة الشمس والقمر والرياح والغيوم، صديق لليل والنهار والتراب والأشجار، حريص على أن يرافق الماعز والكلاب ويسأل عن أحوال الهوام والديدان والثعابين والأسماك.. خاصة القراميط، ويميل للتطلع للحمام والعصافير، ويسعد، إذا وقعت عيناه على الجمال والخيول والحمير و"أبو قردان".

كم من مرة رأيته يكلم دودة ويقربها من أذنه، عندما لا يسمع حديثها بوضوح.. قالت زوجته إنها سمعته بأذنها ينادى حمامة معينة من بِنّياتها، ويقول:

- تعالى يا ثريا بسرعة.. شوفى ابنى راح فين.. مارحش المدرسة النهاردة.

أما الثعابين فحكاياتها معه لا تنتهى ، وتقسم أمه أنها رقعت بالصوت الحيانى عندما شاهدته لأول مرة والثعبان نائم فى حضنه.. وفزع كسبان ونط إليها بعد أن قال لرفيقه.

- خليك هنا أَمَّا أشوف الولية المجنونة دى بتصوَّت ليه.

رائحته بلا رائحة، أو هى أقرب إلى أن تكون عطنة، لها قدرة أن تمنع الأنف أن تشمها... أحيانًا... رائحة محايدة أو لا وجود لها، وأحيانًا تكون رائحته كرائحة الندى، وقد تميل إلى رائحة الشجر، فكأنك إذ تقترب منه، فإنما تدنو من شجرة لا ثمر لها ولا زهر .. وربما كانت رائحته هى رائحة الظل والغروب والأفق البعيد، وهى على الأدق مثل رائحة السفر والقهر والشرود والقلق الجميل، وفيها بعض من رائحة العطش ومسحوق الأسئلة التائهة، وقد يكون فيها عبق الليلة السابقة على خسوف القمر، ورائحة أنات الجسر المحطم، ورائحة بقايا الدموع التى جفت فى عينى طفل فقد أمه، ثم وجدها عندما احتضنته سيدة وكان مرهقًا فنام على فخذها، وبقيت أطلال الدموع تحت الجفون وعلى هضاب الخدود، وقد انطفأ وهجها الحزين وخفت صوتها الشجى المؤثر.

ابن خالي

يا ابن خالي

بماذا تختلف عن شجرة عريانة تقف وحدها فى الريف، وبماذا تختلف عن عنزتك التى تشبهك أكثر من اللازم؟ ولماذا عندما تؤوب إلى دارك، لا تغلق بابك عليك، وتصر على أن يبقى مفتوحًا حتى بالليل الذى يخص قريتنا بالذات بظلام دامس..

أ لأن جدران بيتك لا تحوى بداخلها شيئًا تخاف عليه؟ لا أظنك تخاف على شيء أو من شيء ... أم لأنك فعلًا تشعر بالأمان؟... إذا لم تكن تخاف على نفسك "خاف" على زوجتك وأولادك وأسرارك

ينخدع الكثيرون فيحسبون أنك كتاب مفتوح على الدنيا وأنك بلا أسرار ... وفى الوقت نفسه أحس أنك عندما تخرج إلى الناس تخلع قلبك من جسمك..وتسلم روحك لدنيا الله، كمن يخلع حذاءه لدخول المسجد، لسانى يقول رغمًا عني:

- لا الدنيا مسجد ولا قلبك حذاء.

آه لو أمتلك قدرة على الغوص بداخلك، مع أنك لست لغزًا.. إحساس غامض يجعلنى استشعر أنى أجهلك وأنك بئر، وأنك بين الناس وحيد.

فرق بين أن تكون وحيدًا، وأن تكون غريبًا...

ساعدنى.. لو تقدر على مساعدة نفسك...

لكنى على يقين أنك لا تريد مساعدة، لأنك دائمًا لا تستشعر حاجتك لذلك...

ومع ذلك فأنا على يقين أنك غير متناقض مع نفسك، ولا مع الناس ولا حتى مع جلدك ودمك، بل أنت غير متناقض مع طينة

الأرض وماء النهر والمطر والخريف والربيع والبهائم والزلازل والعواصف والزغاريد وطبول الأفراح ورصاصها.. فيك من كل ذلك...

شكلك بالضبط شكل طلوع الفجر لما ينسحب من صدر الليل، لكن الغرابة الحقيقية فيك هى إنك لم تسكب يومًا دمعة فيما أعلم.. ربما سالت بعض الدموع يوم رحيل أمك وزوجتك الثانية.. هذا لأنك أنت نفسك ولست سواك.. أنت.. أنت ولست غيرك فى أى وقت.

أنت طبيعى جدًّا لدرجة الشذوذ، وَحُرٌّ لدرجة الجوع، وكريم جدًّا لدرجة قراءتك للحزن فى ملامح نملة يتيمة... مبتسم جدًّا لحَدِّ البكاء.. مجنون جدًّا لدرجة أنك لا تستبقى شيئًا فى يدك أو فى رأسك.. جسور جدًّا لدرجة حبك للأرانب والكتاكيت.. من يريد أن يعرفك أكثر فليدق أبواب قريتك التى بلا أبواب.. قريتك التى تضطجع على كتف الزمن، ويمتد شعرها المغبر من محطة السكة الحديد إلى فرع النيل المجهد..

فيا أيتها القرية التى تمددت طويلاً بنسيان الأمل والأحلام، وتجاهلتك الأيام بشكل متواطئ ومبتذل، لقد حاولت كثيرًا أن تغطى عورتك، لكن الرياح التى تبعث بها التعاسة لا تفتأ ترفع الرداء الممزق عن عوراتك، والغريب أنك كابنك بدلًا من الفزع والرفض والمعارضة، بادرت بالضحك، حتى بانت أسنانك الغائبة والمهشمة، والحلق المظلم كفوهة فرن أسود مهجور، ومضى جسدك المكتنز بالرياح والكمد والظلم والمش والدود يرتج ويضطرب، بينما ضحكاتك تجلجل غير عابئة بأى شيء، وسرعان ما طوى الكسل والرضا جفونك الثقيلة، وارتمت سماوات عيونك فى بحيرات النوم..

لكنها ضحكاتك، ظلت تواصل رنينها وهى تخبط الهواء والسماء والليل المرتعش، وبعد أن انقضى عليك وقت كاف وأنت تغوصين فى السبات... السبات ذو السراديب المتفحمة، وأنت مطمئنة تمامًا لقدوم المدد الإلهى فى الموعد المناسب... بدأت أشرعة ضحكاتك تِتْلَم، وقوارب البدن المستسلم تدفعها الأمواج نحو شاطئ الدعة والسكون.

أنت مثله، ومن يعرفك سيعرفه، ومن يعرفه سيعرفك، فليس ثم اختلاف كبير بينكما، أو هكذا أظن.. بل إلى أكثر من هذا يذهب ظنى وهو لا شك السبب، فقد جعلنى أتصور بشكل مبهم أو غامض أن الكائنات كلها فى الأصل متشابهة، وفى العمق متماثلة، لكن بعض الطبقات الظاهرية التى أضيفت إليها هى التى تسببت فى الاختلاف والتباين، واتسعت أوجه الاختلاف تدريجيًّا، لكنها جميعًا يمكن أن ترتد لأسس واحدة أو مقاربة إلى حد كبير، فما الفرق بين الدولة والإنسان والذئب والأسد والكذب والغريزة والنملة، والشجرة والثعبان والوردة، والقرنفل والخفاش.. أغلب الفروق شكلية.

لقد سألنى كثيرًا كلما التقينا عن السر فى أن القطط تضحك طويلًا إذا مر بها، وسألنى مرة عن معنى الكلمات التى كتبتها العنزة على ورق الذرة، فقد رآها بعينيه وهى تنظر إليه ثم تكتب على نور القمر، ولم تتوقف إلا عندما أطفأ نور الفجر مصباح القمر، وأسرعت تخفى ورق الذرة تحت ضرعها المثقل بالحليب، الذى يقتسمه ابن خالى وولداها...

يحكى ابن خالى أنه كلما دفع ولدىْ العنزة ليلتقط الثدى، أغرقا فى الضحك، وقالا له:

ـ سيب البز يا رِخِم..

وبعد أن عزمت العنزة أن تعرض عليه ورق الذرة ليقرأ ما كتبته، وذهبت إليه فجرته جرًّا إلى موضعها، كان ولدها ذو البقعة البنية - وهى لا تعرف مَنْ طَبَعَها على بطنه، مع أن أباه أسود وهى بيضاء — قد أتى على الورق وابتلع عبارات المحبة.

ـ ما الذى دفع بك يا كسبان حتة إلى عالم الأساطير والحكايات؟

هل أنت الذى نسجتها أم هى التى نسجتك؟ أم تراه خيال الجماعة الباحثة عن الخروج من شرنقة الملل والعتمة رسم لك ملامح أنت برئ منها.. هل حاول خيال الجماعة أن ينصب لنفسه مسرحًا لخيال الظل والأراجوز، فكنت أنت الذى وقع عليه الاختيار؟!

لماذا أنت لست معنيًا بالدنيا.. أظن أنك غير مهتم، بل تكاد لا تدرك أن هناك دنيا وحياة وبشرًا ومطالب وصداقات وعداوات وصراعات وسباقات وأحقادًا وضربًا تحت الحزام وفوقه.. أنت فى عز فقرك تضحك، وإذا امتلكت شيئًا اصفرَّ وجهك وشردت ورغبت فى النوم... وفقدت السمع والبصر .. هناك خلل واضح فى خلقتك، وكيمياء عقلك وروحك.

وبعدها معك.. ابتعد عنى.. فطيفك مثل قميص الصوف إذا شددت منه طرف.. كر وفر وانحل، خيطًا طويلًا وممتدًّا مثل نهر لا يقابل نهرًا أو بحر لا تجف ينابيعه.

ابعد يا ابن الخال نهرك عنى واخرج من رأسى بأى صورة.. إما إلى النسيان أو إلى الورق، ولا تنس أن بعض ما تأتيه عار علينا.. نعم،.. فبعض ما يصدر عنك يلحق بنا الضرر إذ نصبح جميعًا، عائلة حتَّة (على الأقل عائلة أمى وأبيك) مضغة فى الأفواه، أو مادة للسمر والتسلية.

بعض ما تفعله، مهما كانت أسبابك فى الإقدام عليه، يصبح مخزيًا لنا، نكاد نتوارى من سوء ما بشرنا به، لكنك ابن خالى وكلنا بالإجماع نحبك.. فلا تضحك ضحكتك العجيبة تلك، ضحكتك المدوية التى تبلغ أقصى أطراف القرية وتجتذب الناس إلينا، فيجتمعون حولنا، ويسألون وينصتون ثم دون سبب يضحكون .. يضحكون لمجرد وجودك بينهم...

أدفع نفسى بعيدًا عنك، فتحترم رغبتى وتسلك غير طريقى، وإذا بهم يمضون خلفك مشدودون إليك بخيط سرى، وبعد عشر خطوات أكتشف أنى فى دنيا غير دنياكم.. أنت وقريتك.

أمط شفتى وأمضى،وربما بعد ساعة ألقاك فى مكان آخر والجمع حولك.. إنهم ينتظرون منك كلمة أو حركة.

هل كانت البداية عندما أخرجت لهم الثعبان الذى كان فى الشق الكبير، الذى لا يزال يفصل بيت رجب هريدى عن بيت نجية؟لا.. ربما كانت البداية قبل ذلك بكثير، ربما كانت يوم مولدك حيث قيل إنك ضحكت ولم تبك ككل الأطفال حديثى الولادة.. وإنك بصقت الماء بالسكر الذى حاولت أن تقطره جدتك فى فمك، وبحثت مغمض العينين عن الثدى، وهذا فى العادة لا يكون....

أنت إذًا ولدت ومعك ولدت غرائبك.. إذ تبولت على كل الغرباء الذين جاءوا ليهنئوا والديك بوصولك قادمًا من المجهول إلى المجهول.. ولما حملوك صببت عليهم ماءك.. يقال إن شخصًا واحدًا، رجلًا كان أو امرأة لم يفلت منك، حتى ذاع صيتك، فتجنب الناس حملك.. وإذا زاروكم أو قابلوا أهلك خارج الدار، حيوكم وقبلوك وأنت فى موضعك. لكنهم كانوا يدهشون، إذ تلعّبُ لمن يحدق فيك حواجبك.. وتحرك أذنيك.. كيف يفعل ذلك رضيع فى الشهور الولى؟!

وقيل إن البداية الحقيقية كانت عندما أمسكت فى يدك القرش الذى وضعه لك العمدة، ثم تأملته لحظة، وفوجئ الحضور الكبير المرحب بالعمدة، أنك ألقيته فى وجهه، ثم أطلقت الريح مدويًا صوته من مؤخرتك وضحكت.

تندر الناس طويلاً بالحكاية، وتناقلوها وسمَّاها البعض لكى ينقشها فى كتاب حكايات البلد الشفهية "العَمْلة الثلاثية" وعندما دخلت بها التاريخ مبكرًا، سحبت فى يدك العمدة الطاهر عبد الظاهر الذى لا أثر له وليس له أى يد بيضاء أو ذكرى حلوة تحتفظ بها البلد إبان وجوده، شفاه الله مما هو فيه، وهدى ابنه الذى ورث العمدية وجاء أسوأ من أبيه... حظ بلدنا المعقرب.

مسكين حسن غلوش مات وهو يتوضأ. مات فى الطشت.. كان وحده بالدار، رفع رجله اليمنى، وهو مقرفص، وصب عليها الماء فاختل توازنه.. سقط فى الطشت الممتلىء إلى نصفه ولم يقم...

حضرتك يا ابن خالى العزيز رمز العائلة وشعارها، تدخل إلى سرادق العزاء ومعك العنزة التى لا تفارقك.. لا تتمسك بها، وإنما هى التى بك تتمسك.. كنت رافعًا ذيل جلبابك لأنك كنت فى الغيط.. تدخل وتجلس، وسرعان ما تقول بصوتك الجهير:

ـ يا حول الله... الراجل غرق فى شبر ميه.

يفاجأ المعزون، لكنهم يسقطون جميعًا فى كريزة ضحك، حتى المقرئ..

تقول بصوتك الخشن، رغم أنك تهمس أو تحاول أن تهمس فى أذن جارك:

ـ الله يرحمه كان راضى جدًّا بحاله، وعمره ما اشتكى.. كان خفيف على الدنيا، حتى لما ربنا قال "يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة" هو خادها من قَصيرهُ.. حط رأسه فى شوية مية واتكل..

عاد الناس يضحكون وبعضهم يكتم، والبعض يتوارى دون أن يستطيع كتم الضحكة، مثل جارك الذى اختبأ فى ظهرك وأنت تواصل تعليقاتك، كأنك لا ترى ما يجرى نتيجة كلامك...

والأغرب إنك لا تتوقف حتى بعد أن وضع جارك يده على فمك وهو يقاوم الضحك، فتتابع كلامك متوجهًا به للعنزة.. إلى أن جاءك يوسف ابن عمك الحاج حمدان، وقال لك، وهو يسلم عليك ويجذبك لتقف:

ـ شكر الله سعيك.

قاومت، وبقيت جالسًا وأنت تقول:

- غفر الله ذنبك يا سيدى.

- فيه حد بينادى عليك.

تفهم الإشارة:

- اللى عايزنى يجينى أنا ما بروحش لحد.

- يا سيدى، عايزينك فى كلمتين.

- أنا!.. إشمعنى أنا بالذات؟

يجرك يوسف:

- يا سيدى .. تعالى.

- طب والمعزة.

- المعزة قبلك.

- يا راجل اوعى.. لا يمكن ح اخرج.. كله إلا الواجب يا جدع... الدنيا تستنى.. الواجب لأ.. إنت ما تعرفش الأصول..

يتدخل جارك قائلًا:

- طب قوم معاه ياكسبان.. الواجب قاعد.. لسه الشيخ فى أول الربع.

- إنت شايف كده

يا بن خالى.. يا كسبان حتة .. هل أنت حقًّا كسبان حتة؟ هل لك من اسمك نصيب؟..

لا أستطيع أن أحكم، لعل والدك سمَّاك بهذا الاسم أملاً فى أن تكسب، وتمنيًا للربح والنصر وجبر الخاطر.. لا يبقى للناس فى بلدنا أمل إلا فى الأسماء، لأنه لا يوجد أمل فى أى شيء على الأرض،

وما زالوا ينتظرون منذ آلاف السنين، لعل الله يحقق لهم واحدًا على الألف مما يتمنون، ومما تحقق للناس فى كل الدنيا.

قال كسبان بهذه المناسبة:

ـ ما تستعجلوش.. ربنا مش ناسى.. بس بالدور.. دوركم لسه مجاش... أنا عارف الميتين بيزعلوا لأنهم ما شافوش القرش ولا اللقمة الحلوة ولا الفرش الناعم، لكن المؤكد ح يشوفوه فى الجنة.. أنا عن نفسى مش ماشى من المخروبة دى إلا لما أخد حقى تالت ومتلت.

ويسأله شاب من المجتمعين حوله:

ـ إيه حقك يا كسبان؟

ـ اعمل مدرسة لكل عيال الكفر.. مدرسة داخلية.. يناموا فيها ويلعبوا ويجروا فى جنينتها، ويلبسوا حلو ويعيشوا فى نضافة.. كل شىء فى المدرسة جميل وبِيْبْرُق.. العيال تجرى وتلعب وتضحك، ولما تيجى تخرج من المدرسة تطير زى العصافير فوق الكفر والكفور اللى حوالينا، وبعدين يرجعوا يستحموا وياكلواويناموا ويصحوا يلعبوا ويتنططوا.. وأنا الناظر ومعايا بنات حلوين صغيرين هُمَّا إللى بيخدموا الأولاد ويعلموهم.

يسأله شاب آخر:

ـ هو ده حقك يا كسبان؟

ـ أملى.. وأملى هو حقى.

أبوك مختار هو من سَمَّاك كسبان، لعل نصيبك يكون مثل عمك وخالى عثمان الذى كسب الملايين، لكنه لا يسمح لخيره أن يمتد لغيره،

وعمتك أتيح لها أن تكسب الكثير بعد وفاة زوجها، ربنا فتح عليهم من وسع بشكل مفاجئ.

فهل كسبت شيئًا حتى بعد الثروة التى آلت إليك ولها قصة ليس الآن أوانها، وما بلغنا عنها ملتبس.

الأسئلة عنك تتوالى وتتجمع فى منطقة فسيحة، مثل سوق السيارات المستعملة، الناس يتفرجون ويفحصون، ولا أحد يشترى.. لا أحد يتمكن من الحصول على إجابة، وإذا حدث وحصل أحد على إجابة فإنها إجابة زَلِقة، تداخل فيها الربح بالخسارة، والنصر بالهزيمة، وسالت الدموع بين ضجيج الضحكات.

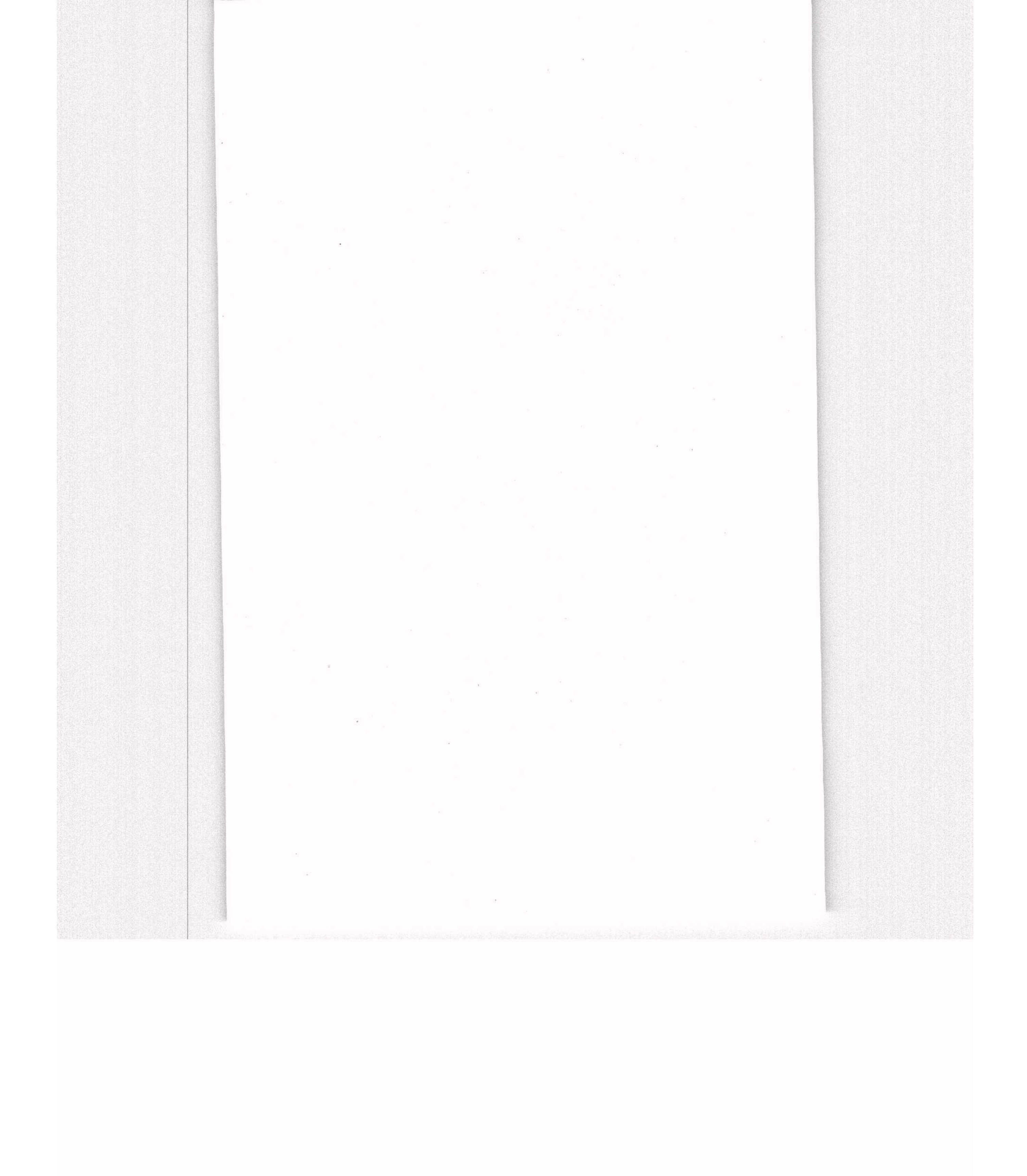
كثيرًا ما أراك تبتسم وفمك مَفْشوخ على الآخر، وتتيه رضا عن الدنيا وأنت مفلس، وأحيانًا تلوح الغيوم ساعة فى سماء جبينك، بينما أنت قد التهمت طعامًا دَسِمًا وتمتعت بليلة هانئة.

هل طباعك بالكامل من صنع الله، أم من صنع أبيك مختار حتة وزوجته الثانية أخت العمدة...

كان أبوك خائبًا أو شبه خائب، وكانت زوجته قاسية ولعينة ومعقدة بالطبيعة أو بسبب طول فترة العنوسة، فامتزج الأسى بغياب الـخُطَّاب بغطرسة ورثتها عن الأسرة التى تحكم البلد منذ نحو قرن، تنتقل العمدية إليها آليا ودون نزاع منذ أن اقتلعوها بحركة غدر من القنادلة أصهارهم، حتى أصبح الطفل عندهم وهو لا يزال فى مرحلة الرضاعة يعلم أنه السيد، الذى لابد أن يكون صاحب الكلمة، أهل البلد جميعًا مهما كانت أعمارهم وأموالهم سيلبون مطالبه، العمدة



"ماتستعجلوش.. ربنا مش ناسى.. بس بالدور.. دوركم لسه مجاش"



الكبير فى ظهره والمأمور إلى جانبه، ورئيس المباحث يؤازره وشيخ البلد يجرى خلفه وشيخ الخفراء لا عمل له إلا حراسته وتنفيذ أوامره، وهى فى نصف الطريق إلى أذنيه، وربما قبل أن تخرج من حلق صاحبها الصغير الذى يتقافز فوق الفرس.

(٣)
الرهان

كسبان حتة صورة مثالية للفلاح المصرى.. الفقير.. البسيط.. يغطى رأسه فى الغالب بطاقية وبر، ويرتدى جلبابًا واحدًا أو اثنين طوال العام، عدا يوم الجمعة، حيث يرتدى الجلباب الأبيض النظيف للصلاة، كما أن لديه قميصًا وبنطلونًا لزوم مشاوير البندر.

الصديرى رمادى يومض كصفحة مياه النهر تراودها أشعة الشمس، لا يخلعه أبدًا إلا عند النوم، وتحته فانلة قطن بنصف كم، السروال يصل إلى الركبة أو أعلاها بقليل.. عنده حذاء مهترئ يخلعه إذا نزل الغيط، قدماه متضخمتان من كثرة الحفاء، ولأن حذاءه لا يمنع من وصول الماء والهواء والتراب إلى قدميه.

ليس فى حياته ما يختلف عن حياة الآخرين، إلا إذا اعتبرنا إنجابه أربعة توائم دفعة واحدة أمرًا يستوجب التأمل.

بعد أن ينجز عمله، يجلس تحت شجرة الصفصاف الواقفة على رأس غيطه ليأكل رغيفًا بالشطة السودانى، يحمد الله ويدفس البراد

الأسود ظاهرا وباطنًا فى الأغصان المشتعلة جوار خصه.. يلقمه الشاى والسكر.. يتركه يغلى على مهل..

يسحب من جيب الصديرى علبة صفيح صدئة طمست معالمها.. داخلها صفحات من نحاس أصفر شديد اللمعان، كأنها خرجت من يد الصانع منذ لحظات، مع أنها كانت ضمن ما تركه الجد الكبير.

يبسط بين أصابعه ورقة بفرة رقيقة جدًّا ويرص بداخلها حفنة إصبعين من الدخان.. يوسدها بشكل طولى، ويبدأ بأصابعه المدربة فى لف ورقة البفرة حول الدخان، بعد أن يبل بلسانه أحد جوانبها ويكتمل اللف فيلتصق الجانبان ويطويها من الطرفين؛ لتحكم البفرة قبضتها على الدخان.. يضعها فى فمه، ويسحب من النار أحد الأغصان المشتعلة، يقربه حتى يلمس طرف السيجارة الأمامى، ويسحب النفس فيحمر الطرف، يبلغ حلقه مذاق الدخان.. يعاود السحب بحنان ومزاج، ويسترخى قليلًا فى جلسته إلى أن تتناهى إلى أنفه رائحة الشاى المميزة، تتصاعد من البراد الذى تكثفت على جدرانه طبقات من الهباب.

يطلق بصره ليمسح قطعة الأرض التى يزرعها لتطعم أولاده الثلاثة.. مساحة لا تزيد عن نصف فدان، أخذها من العمدة بعد عراك طويل.

مرت نظراته الحانية إلى أطراف القمح والفول، وداعبت خدود الكرنب، وربتت على عيدان البرسيم الصغيرة التى عادت للظهور بعد الحشة الأولى.. العنزة هناك والجاموسة، الحمار والعجل الصغير..

رشف من كوب الشاى رشفات، وسحب آخر أنفاس السيجارة، وتلقى نسمات عليلة قادمة من فوق الخضرة العذراء المحملة بالعطر والصفاء. بينما أذناه تلتقط وشوشة العصافير فوق الأغصان البعيدة.. تبدو على ملامحه دلائل سعادته بجوار العصافير الفرحانة بالعش الآمن، وقرب فقس البيض.

أحس بالخدر يسرى فى بدنه، وخامرته أحاسيس عابرة بالرضا عن نفسه وعن الحياة.

ـ الحمد لله.. إحنا يارب غلابة، فسامحنا، وتجاوز عن سيئاتنا.. ما فيناش غير لسان، ونفس طالع ونفس داخل.. يلعن أبوه اللى ينكر فضلك.. الستر من عندك.. أنا ساعات بخرم.. إبقى فَوِّت لى.. أنا متأكد لو تحاسبنى بجد ح تقطع رقبتى، إلهى ربنا يكرمك سيبنى على راحتى.. أدينى عايش أى كلام.. الحكاية كلها أى كلام.. أنا فاهم وأنت فاهم.. ما تزعلش أنا عارف إن لك حكمة أنا راضى بيها جدا.. ومش قلقان.. بس ساعات أتعجب من الأحوال.. اعمل مابدالك.. سرك فى بير.

احتفن فى يده بعضا من تراب الأرض، وبسط كفه أمام عينيه قائلاً:

ـ التراب ده نعمة كبيرة.

تأمل ذراته.. حاول أن يبحث فيها عن سحره وقوته.. تمتم بنبرات شاردة:

ـ كل شيء منك وإليك.

شعر فجأة برغبته فى التبرز، نهض متفائلاً وتمشى حتى قيراطين القمح، وهبط رافعًا ذيل ثوبه مقرفصًا على ساقيه.. انكشفت عورته، لم يكن يرتدى سروالاً.. لقد مضى على ذلك عهد بعيد، ويبدو أنه نسى، وربما كان متعمدًا.. الكثيرون يعرفون أنه أقسم بمؤخرة أم شيخ البلد أنه لن يلبس لباسًا، إلا إذا ثبت للجميع أنها كانت بجلالة قدرها تلبس لباسًا، وكان السبب فى ذلك، كما يحكى الرواة، أن شيخ البلد المعروف بالحماقة والاندفاع قد سَبَّ أم كسبان، وبلغت الحكاية "كسبان" مضافًا إليها بعض التوابل من قبيل:

ـ زغدها فى جنبها وشوح بإيده فى وشها، وقال لها ياَلمَّامة الجلة.

كسبان يعرف أن أمه مولعة بجمع روث البهائم، وأنها عمشة وثرثارة، ومرات استحمامها فى العام قليلة، لكنها عنده سيدة نساء الأرض، هى عنده السيدة الأولى، ليس فى مصر وحدها ولكن فى كل دول العالم.. ومن يمسها بربع كلمة سيكون نهار عائلته كلها أسود من قرن الخروب...

لم يرد على شيخ البلد، عندما بلغه أنه سَبَّ والدته، غير أنه أقسم أمام جمهرة كبيرة من الخلق وهو يخلع لباسه، أنه لن يلبس لباسًا أبدًا إلا إذا تأكد وتأكد معه أهل البلد.. أن أم شيخ البلد التى لا تزال على قيد الحياة ترتدى لباسًا، طويلاً كان أو قصيرًا، مزركشًا ومنقوشًا وملونًا أو سادة.. والدليل يكون عن طريق أربعة شهود عدول.

وفى مرة، هدد بأن يطلع من هدومه فأسرع سامعوه يختبئون أو يخبئون وجوههم، لأنهم يعرفون أنه عار تمامًا إلا من الجلباب، فلا يقترب منه أحد أو يهدده أحد ويفكر فى أذيته، فأسرع أسلحته أن يطلع من هدومه وليحدث ما يحدث...

كان كسبان يعلم أن أمه تصحو مبكرًا وتخرج قبل الكل لتجمع فى قفتها روث البهائم الطازج، وتضربه ببعض القش أو التبن وتعده أقراصًا كبيرة، وتنشره فوق السطوح ليصبح وقودًا لا يستغنى عنه أى بيت فى القرية، وهى أهم من يبيع هذا الوقود الهابط من مؤخرات البقر والجاموس.

لم يفكر لحظة أن يردها عن هذا العمل رغم عدم رضاه عنه، لأنه كان يحبها جدًّا ويشفق عليها، ويكافح نفسه كثيرًا حتى لا يغضبها مهما بلغت، فقد حَزَّ فى نفسه ما فعله معها أبوه "النَّطْع"، الذى تزوج بالسيدة زاهية عميدة العوانس وأخت العمدة.

كان يرى والدته وهى تتابع البقر وتحدق فى مؤخراتها، وتجتهد محاولة معرفة نواياها (نوايا المؤخرات..).. هل فتحتها تنبض بالحركة وتضطرب؟ هل حركتها تعنى رغبتها فى التبرز حقًّا، أم مجرد اهتزاز ناتج عن المشى وحركة الحوض العظمية؟ هل هى محمرة قليلاً استعدادًا للتخلص من فضلاتها، أم يزال أمامها بعض الوقت؟؟!

تكونت للوالدة الكريمة خبرة على مدى خمسين عامًا من طوال التحديق فى مؤخرات البهائم والدواجن فقط، هذا مجال تخصصها..

حتى لتستطيع أن تعرف متى تخلصت هذه المؤخرة أو تلك من فضلاتها من مجرد النظر إليها، وبالطبع تستطيع أن تحدد موعد سقوط أى فضلات تجدها على الأرض وعمرها ونوع البهيمة.

تمكن فريد نابع من طول مراس وتأمل وإخلاص .. لم تكن فى حاجة إلى أن تعلم أن الحيوان منظم جدًّا فى طعامه وطرد فضلاته، ففى الأغلب يتم ذلك فى الصباح وفى المساء، ونادرًا ما تخرج البهائم فضلاتها أثناء النهار إلا إذا اضطربت مواعيد غذائها لأسباب خارجة عن إرادتها..

أمه السمراء القصيرة النحيلة التى أنجبت دستة من الأبناء، تعجل نصفهم مغادرة الدنيا مبكرًا، وأصر النصف على استكمال المغامرة.. يعيش منهم اثنان خارج البلد، والباقون أكبرهم رقية زوجة خفير، والثانى حمدان ساعى فى مصلحة الضرائب ببنها يقيم مع زوجته فى البلد، أما الثالث فبنت، تجاوز بها العمر سن الزواج، وهى التى تصرخ فى أمها كلما رأتها، راجية منها أن تكف عن جمع الروث فهو الذى كَرَّه فيها العرسان وبَوَّر أرضها.. ولو توقفت أمها عن هذه المهنة العار لكانت صفوف الخطاب تمتد أمام الباب لا يرى أحد لها آخر.. لذلك فهى تفكر فى الذهاب للعيش مع أخيها كامل المقيم فى السويس أبدًا، ولا يفكر فى زيارة الكفر مهما حدث.. لكن نجية تهدد فقط وتعلم أنها لن تستطيع العيش مع زوجة أخيها، التى زرعت القسوة فى قلبه من جهة أهله، مع أنها ابنة عمة زوج أختها..

الذباب يتجمع ويمصمص مؤخرة كسبان الذى يستشعر هذه النقرات الضعيفة التى تدغدغه.. العصافير فوقه تتسابق فى الفضاء،

يبلغه صفق ونبض الأجنحة الصغيرة وفرحة الهواء بالكائنات الجميلة، متنفسًا بعمق عطر القمح وحضوره العارم.. والهواء يمر بين إليتيه موشحًا ببرودة لذيذة.. شعر بالراحة بعد الانتهاء. . حك مؤخرته بقطعة متماسكة من الطين الجاف.. قرب مؤخرته من القناة الصغيرة التى كانت تلمع فيها بقايا مياه واغترف عدة مرات واغتسل.. أحس بالنشاط.. تفل فى يديه وأمسك بالفأس.. رفعها إلى أعلى ونزل بها مدعومة بقوة ذراعيه إلى الأرض.. نفذ سلاحها كله فى باطن الأرض.. احتاج لبعض الجهد كى يستردها من جديد لترتفع مرة أخرى، ثم يهبط فى موضع مجاور تشق الأرض وتغوص فيها، إلى أن ظهر شوقى فراش المدرسة، يقول له:

ـ تعالى كَلِّم الأستاذ رمزى.

ـ رمزى فايق ورايق .. أنا ورايا شغل.

ـ اتراهن يا سيدى مع الأستاذ نبيل على إنك تقدر تاكل اتنين كيلو سمك بقشرهم.. يعنى من البحر على بقك..

ـ وفيها إيه دي؟

ـ الأستاذ نبيل مش مصدق..

حط الفأس، وقال له:

ـ استنى أنا جاى وَيَّاك.. أما أشوف أخرتها.

سأل كسبان عن الرهان.. قال الأستاذ نبيل:

ـ جنيه منى لجنيه منه..

ضرب كسبان كفًا بكف:

ـ إنتوا نسيتوا الشغل.. أنا فين من كل ده؟

ـ الله..ما أنت ح تأكل السمك.

استدار كسبان ليتركهم، أمسكوا به.

قال:

ـ كان لازم يكون الرهان معايا أنا.. الأول أنا أقولكم إذا كنت أقدر ولاّ لأ.. وأنا موافق آكل السمك.. على كام؟

قال نبيل:

ـ أدفع لك جنيه إذا أكلته.

قال كسبان:

ـ أقل من خمسة مش ح آكل.

ضحك نبيل، وقال:

ـ قل عشرة أو عشرين، أنا واثق إنك مش ح تقدر.

قال رمزي:

ـ خلاص يا نبيل، تدفع له خمسة جنيه، وأنا عَلَيَّ السمك.

زَعق كسبان، وقال:

ـ خَلَّصونى.. مش فاضى.. ورايا سمك فى حتة تانية.

ضحكوا واتفقوا.. وجئ بالسمك، سبع سمكات، كل منها فى حجم الكف.. بعضها لا يزال يتلوى بذيله ويهز رأسه باحثًا عن الماء، بدأ كسبان يأكله دون طهى، الجمع يزداد كلما مر الوقت.. الناس تسرع

بالحضور وتترك كل أشغالها، ومنهم من جاء دون أن يصله خبر الرهان...

كأن مغامرات كسبان لها رائحة نفاذة، تجذب الجميع من بيوتهم وتدفعهم لترك غيطانهم، حتى مدارسهم.. خرجت المدرسة كلها.. الأساتذة والتلاميذ ثم الناظر..

كان كسبان قد بدأ بأكبر سمكة.. فتح فمه.. سلم له رأس السمكة، هرسها بأسنانه وشرع يدفعها تدريجيًا حتى أعماق حلقه ويبلع ما يمضغه، ويستقبل بفمه مساحات أخرى من السمكة.. يفتحه ويغلقه على خياشيمها وزعانفها وقروشها ورأسها وذيلها، وما فى بطنها من فضلات سوداء ولزجة.. مَيَّزت أسنانه فى أحشائها سمكة صغيرة.. ابتلع عمودها الفقرى.. وهيكلها المسنون وجلدها السميك الطازج القوى.. يأخذ نفسه بصعوبة.. يتوقف لحظات ليسحب الهواء من أنفه.. لم يكن من السهل أن تقطع أنيابه لحم السمكة القوى رغم طراوته..

جسده يتلوى مع حركة المضغ.. الناس يتزايدون.. يندهشون.. يقفون مفتوحى العيون والأفواه، منهم من يحرك شفتيه وأسنانه ويدفع ريقه داخل مريئه، كمن يساعد كسبان على الابتلاع.. لكن بنتين صرختا فجأة وأخذتا تبكيان وقد تصورتا أن أحدًا أنزل بعم كسبان عقابًا قاسيًا وغير إنسانى، والرجل يتعذب ولا أحد يخفف عنه.. ضمهما سامى فودة سكرتير المدرسة إلى أحضانه، وربت بحنان على ظهريهما، وطمأنهما قائلًا:

ـ إيه يا بنات.. ده هزار ولعب.. مالكم.. يلا نبص سوا.. شوفوا عمو كسبان بيعمل إيه.

قالت إحداهما بصوت مغمور بالأسى والشجن:

ـ ده تعبان قوى.

ـ بيتهيألك.. دى حركات.. علشان يُسْبُك التمثيلية.

ـ تمثيلية!!.

ـ أيوه.. تعالوا نبص عليه، علشان لما يخلّص نصقف لهُ.

جرهما بهدوء إلى المسرح ليشاهدا العرض الصعب، وقد تراجعت إلى حد كبير ملامح الحزن، التى أرعبت الأرواح البريئة والعيون الجميلة.

الناس تقف.. عليها سهم الله.. لا أحد يدفع الذباب ولا يسمع أذان الظهر، ولا يعبأ بمواعيده أو ببهائمه إلى أن انتهى كسبان من الأولى.

استطاعوا عندئذ أن يلتقطوا أنفاسهم التى اكتشفوا أنها كانت متوقفة.. بدأ فى الثانية على الفور ودون راحة إلا للتنفس، ثم الثالثة، وخامر البعض شعور بأنه لن يستطيع الاستمرار بعد الرابعة، ولن يكمل ابتلاع السمكات السبع، لكنه مضى يمضغ وقد تضخم وجهه واحمر واتسع فمه وغلظت رقبته وبانت عروقها وعضلاتها..العرق يسيل.. فمه ملوث حتى أنفه وذقنه وصدغاه بالقشور والفضلات.. شعر الكثيرون بالتقزز للمشهد الغريب.. ساورهم القلق على كسبان .. كيف يقدر على ابتلاع تلك الفضلات القذرة المتجمعة فى أحشاء السمك؟

الناس لا تنطق.. تحدق فى الرجل، الذى كانت تشارك فمه فى

التهام السمك جميع أعضاء جسمه.. صدره يتلوى وبطنه وظهره وذراعاه.. خلال المغامرة المثيرة قفز عدة مرات، ولما انتهى تمامًا.. مسح بكم جلبابه فمه وكل وجهه، واحتاج أن يستخدم الكم الآخر، ومسح على ملابسه ونَظّف شاربه، وبرم طرفيه.. لم يتنبه لعيون المحدقين الذين ينتظرون فى ترقب وقلق مصير كسبان بعد المغامرة الغريبة.. إلى أن أخرجهم من ذهولهم صوته:

ـ إيدك يا خويا إنت وهو.

ضحك رمزى الذى يثق فى قدرات كسبان، وظل نبيل فاقدًا النطق كغيره، ثم صفق، فصفق الجميع..

ابتسم كسبان بتواضع حقيقى إزاء تحية الجماهير المحتشدة.. طَبَّق الجنيهات الخمسة ودَفَسَها فى جيبه، وسار.. يخامره الشك فى أن السمك يتحرك فى بطنه.. حاول أن يلتقط أى إشارة.. وقف وضحك وفوجئ بعشرات الأطفال تتبعه.. كان الرجال ينصتون إليه، ويتابعون سيره أمامهم متأهبين لتلقى خبر سقوطه، ورؤيتهم له وهو يتهاوى فجأة بسبب مغامرته الطائشة، لكنه كان يضحك ويتحدث إلى الأطفال بصوته الخشن، بينما الأطفال يشيرون إلى بطنه، ولابد كان الحديث عن السمك الذى يسبح الآن فيها..

كنت بين الناس مذهولاً مثلهم.. ولكنهم يتمتمون ويتعجبون ويتبادلون الدهشة والتعجب.. وكنت صامتًا أُخفى فى أعماقى ذهولاً أكبر مَغْموسًا بالأسى.. ويتعالى صوت الأسئلة ووخزها.. أمن أجل

خمسة جنيهات؟ .. لا أظن.. أمن أجل تسلية العباد؟ .. لا أظن.. أمن أجل استعراض القوة والتميز؟ .. ربما .. ولكنه يعلم جيدًا أنه يعرض نفسه للخطر.. فما السبب؟.. آه يا ابن خالى. أمط شفتى عجزًا وعجبًا وأمضى...

(٤)

المستقيم والدائرة

كل من فى القرية يشعر أنك ملهاتها، التى لا يعرض غيرها على مسرح الشوارع وليالى السمر، فهل أنت تدرك ذلك وترضى أن تكون المسرح والملهاة؟.. ألا يسيئك أن تكون المهرج فى قصر الأمير وحوش الخفير، وتسلية الصغير والكبير.. وأن تكون الطبق المفضل على كل الموائد المراد أن تحفل بالمشهيات.. أنت صندوق الدنيا والأراجوز.. يشاهدونك فى كل وقت سواء بالبث المباشر أو بالاستعادة.

كل حى حتى الأغنياء وأصحاب المناصب والكلاب والوطاويط.. كم يضحكون عليك، خاصة بعد منتصف الليل، بعد أن ينام أهل القرية الذين تنحط أجسادهم من ضربات الفأس والشمس...

هل يكفى أن تشرب لبنًا وتحب العنزة وتقبلها، ويعلم الله وحده سر العلاقة المريبة بينكما، هل يكفى أن تمنع عن الناس شرك كى تطوى الحديد وتأكل الزجاج، وتعبر النهر بضربتى ذراع وتمشى على الجمر، وتحمل أربعة على كتفيك، أخفهم وزنًا ضعف حجمك، **وتحمل على عضوك المنتصب مقطفًا به عشرة قوالب طوب**، وتكسر

بأسنانك عشرات المسامير، وتظل داخل شوال التبن مكتوم الأنفاس نصف يوم.. وتقلب سيارة وزنها أكثر من طن، وتعبر النار لتنقذ أهل الدار المحروقة دون أن تصاب غير ملابسك.. لا.. وألف لا ... لابد أن هناك سرًّا .. هل أنت قوى حقًّا، أم بالفطرة لا تزال.. أم أن يد الله عليك ومعك.. كيف يتحقق لك ذلك وتستجيب لك الأشياء، وأنت الذى كما يعرف كل الناس، على الأقل لأنك مثلهم.. نشأت وترعرعت على المش العامر بالدود، والجبن القديم الأسود الذى تعتق فى الملح سنوات، وبعض الخضراوات التى تعشش فيها البلهارسيا والدوسنتاريا، وكل ما يسبب الأمراض الفتاكة...

قلت له مرة، وفى رأسى عدم حرصه على الصلاة إلا يوم الجمعة فقط، وربما يرجع ذلك إلى أن الجميع يذهبون حتى الذى يعصى الله طوال أيام الأسبوع وأيام العمر، ومنهم من يعصى الله، حتى وهو فى قبره:

ـ بتحب ربنا يا كسبان.

ـ جدًّا.

ـ عايز منه حاجة؟

ـ إنت رايح له ولا إيه.

ضحكت، وضحك.. بانت أسنانه التى نقصت واحدة.. قلت:

ـ بكلمك جد..

ـ مفيش مخلوق مش محتاج ربه.

ـ وانت !!

- أكتر واحد محتاجه.

- إيه اللى عايزه؟

- الستر.. أسوأ شيء فى الدنيا الفضيحة..

- إنت والحمد لله متمتع بأسوأ شيء فى الدنيا..

- رأيك لك لوحدك..

- بتطلب الستر من ربنا .

- لأ..

- ليه؟

- هو عارف..

- لازم تكلمه..

- مش فاضى لى.. ربنا يعينه.

- ربنا يعينه؟

- أيوه.. عنده مشاغل كتيرة..

- قادر..

- مين يقدر على عمايل الناس وملاعبها؟

- هو اللى خلقهم..

- كانت شُورَى غبرا..

- حاسب فى كلامك.

- إنت يظهر مش عارف ربنا كويس..

- عَرَّفنى..

ـ أعرف شيء واحد بس.. خَلِّى بطنك وفرجك وقلبك نضيف، وبعدها نام وشخر.

ـ يعنى ما تعرفش الحيرة.. الخوف...

ـ لأ..

ـ عمرك ما خفت.

ـ لأ.. أخاف ليه.. أنا مش مستنى حاجة ولا فيه حد كبير يخوفنى.. آه.. افتكرت.. فى مرة كنت ماشى والدنيا كانت ضلمة أكتر من أى ليلة.. كُحْل.. سمعت أصوات غريبة.. همس فى الأول وبالتدريج عليت الأصوات.. ما كانش الوضع مريح.. قلقت.. العَتْمة شديدة ما تشوفش فيها صوابعك.. العتمة بدأت تدخل جُوَّايا.. دخلت من رجليا الأول، وبعدين اتسحبت على فوق، الوضع مش طبيعى.. بس فضلت ماشى.. مش ح يفيد وقوفى.. قلبى خَبَّطْ على باب صدرى بشدة، فتحت له.. خرج ومشى جنبى وقعد يبص لى ويضحك.. حسيت إن جسمى كله فاضى وأنا مجرد هيكل مليان عتمة وبرد.. اتلفت حواليَّه.. لقيت قلبى اختفى.. فى الحالة دى فعلاً خفت.. جريت.. قعدت أجرى لما وصلت البيت.. دورت عليه فى كل الأود.. فى الزريبة وفوق السطح وتحت السرير قلت يمكن سبقنى.. مالقيتوش.. ما كلمتش حد.. اندفست فى السرير ونمت.. أول ما حطيت رأسى حلمت أن قلبى فوق النخلة العالية اللى ورا الجامع.. قمت من النوم بارتعش.. رحت طوالى هناك.. طلعت النخلة، لقيت قلبى زى اللمبة منور ومستنى، بس بيرتعش.. جبته ورجعت، قالِّى فى السكة.. كنت عايز أعرف غَلاوْتى عندك،

أخذته فى حُضنى.. فتحت له صدرى.. دخل مكانه.. حط ونام.. وأنا .. أخذت نَفَس غَويط ونمت.. ما كانش ممكن استمر من غير قلب.

ـ إنت فاهم إن الحياة بالبساطة اللى بتتكلم بيها.

ـ أنا مش متعلم صحيح، لكن عايزك تفكر فى المستقيم والدايرة.

ـ عقدت المسألة ليه، ما كنت حلو؟

ـ بالعكس..

ـ حكايتك إيه؟

ـ فَكَّرْ على مهلك.. سلام..

ـ لسه الحديث ما..

ـ رَوَّح للتلامذة..

نهض وبسرعة اختفى، قلت فى نفسي:

ـ أنا أول التلاميذ..أحتاج لدروس كثيرة.. المستقيم والدائرة ماذا أراد بهذا مثلاً؟ موضوع المستقيم والدائرة زلزلنى.. طَوَّحْنى بعيدا.. كيف أدخل إليه، وقد قام قبل أن يسلمنى المفاتيح؟

طبعًا هو ليس حكيمًا، ولا يذكر ما جرى بالأمس ولا يحس بالحاضر ولا يعرف شيئًا عن الغد.. كل ليلة إذا أسلم جسده إلى الأرض، أسند رأسه وقلبه إلى وسائد البركة.. ليس بالإمكان القول بأنه صالح أو ولى أو نبيل أو فخر أمته، ولن يقال إنه شخص ساقط أو سيء تماما، وإن كان يهبط أحيانًا كثيرة، فهو يبول على حوائط الشارع كالكلاب، وقد ينام فى الخلاء، وعندما يجوع ينزل إلى أى حقل فيلتقط منه ما يشاء دون غسيل، ولا يرده أحد.. ويشرب من النهر بعد أن تمر جيفة الجاموسة الميتة أو الكلب الميت وقد يتبول فيه، ثم يشرب

منه..وأحيانًا يتحسس مؤخرات بعض السيدات اللاتى يثق أنهن لن يثرن ولن يصرخن وأقصى ما يفعلنه، أن يضربنه بالقبضة الطرية على الظهر قائلات:

- تبقى تتقطع إيدك يا ابن كايداهم .. قادر يا كريم.

لا يحدث أن تتقطع يده، ولا يحدث أن تتوقف يده عن قرص المؤخرات ودعك الأثداء الناهدة.. لا شيء يعانده ولا أحد يتحداه، هل لأنه ليس موجودًا أو محسوبًا، أم لأنه لا ينافس أحدا فى المصالح، ولا يتبارى معهم لاقتناص ما يطمعون فيه، وما يتبقى له ليس إلا الهزار والدعابة ورغبة فى التسلى، وإنقاذ الروح من الإنهاك والجفاف.. ماذا فعلت بحياتك وبنا يا قريبي؟.. أنا على ثقة أنك لازلت على خط البراءة المستقيم، لا تعرف الحسرات ولا الندم.. تعيش اللحظة باللحظة واليوم باليوم.. بئرك كل يوم يبيت فارغًا.. لكنك لست درويشًا أو أبله أو غافلاً.. أنت بمزاجك تتخلى.. قاصدًا، راضيًا بالقليل مع هناء البال وراحة الدماغ...

لست كالذين يدورون للبحث عن ذيولهم وذيول غيرهم، يلفون وراء أنفسهم ووراء غيرهم فى دائرة لا تنتهى.. ما زال السؤال هو كيف أصبحت ذلك المهرج والساحر، وتلك الشخصية اللافتة والغريبة؟

لا أحد يعرف البداية إلا القليل.. ربما لا أحد إلا أنا.. وقد يعرف البعض البداية، لكنهم لا يربطون بينها وبين ما يقع الآن لك وما يصدر عنك.

أنت نفسك لا تدرك كنه تأثير البداية وقوة دفعها، بعد أن غارت فى الوجدان

(٥)

البداية

كان أبوه يتميز بين كل رجال البلد والبلاد المجاورة بقدرته الفذة على إنجاز كل ألوان الفشل فى مشروعاته التجارية التى أقدم عليها، سواء فى تجارة المواشى أو الحبوب أو الكتان أو الصوف أو السجاجيد أو الفاكهة، فضلًا عن القطن والتبن حتى ذبل الحمام والكُسْب والدقيق والرَّدَّة.

باع أرضه من أجل عيون التجارة التى كثيرًا ما كان يتحدث عن أهميتها، وما قاله الرسول من أن تسعة أعشار الرزق فى التجارة، وقد تمكن الرجل من أن يثبت العكس، رغم حديثه الدائم عن الخبرة التى يجب أن يمتلكها التاجر، مضافًا إليها الذكاء والدهاء وحضور البديهة، واتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب وحسن قراءة السوق، وهو من هذه الناحية – ما شاء الله - خبير الخبراء، الكلام كلام علماء والفعل.. فعل الفاشلين.

كان رجلاً طيبًا جدًّا، ولكنه عندما يتكلم يبدو كأنه أقسى الرجال.. يشخط وينطر.. تضيق جبهته وتمتلئ بالتجاعيد.. يضغط على أسنانه

ويحمر عينيه، لكنه عندما يهم بإصدار قرار بعد الثورة والتهديد والتأكيد على الأدب والأصول، يحن ويتضاءل ويعود لطبيعته، ويأمر بأن يعفى عن المخطئ بل ويقدم له أشهى الأطعمة، ويعدد المبررات التى دفعته لهذا الخطأ.. وينهى حديث الرحمة والسماح والعفو، قائلًا:

ـ طيش يا اولاد.. ماعلهش.. مين فينا ما بيغلطش.

تسود الدنيا فى عينيه عندما تنصب فى يديه ثمار الفشل، وتبلغه النتائج السيئة لمسعاه غير المضمون، وسكته المثقوبة الممتلئة بالحفر، كل يوم يفقد شيئًا مما يملك، فى الأغلب تدور الخسارة فى كل صفقة حول قيراطين أو ثلاثة من الأرض التى ورثها عن أبيه .. أم كسبان دائمًا جاهزة للأخبار التى تعرفها مسبقًا، فتلطم خدودها كما تلطم الجلة التى تجمعها، حزنًا على مستقبلهم الذى يدمره الأب الخائب، الذى لم ينفعه إصراره على تسمية المولود الأخير كسبان.. ربما يكون قدم السعد على نفسه وعلى أهله، رغم فوات الآوان..

كم نبهته زوجته كى يهرب من العفريت الذى يتلبسه وهو عفريت التجارة، وتؤكد إن كل شيء ربنا رتبه ورسمه، وكل شخص مؤهل لشغلانة شكل، تختلف عن شغلانة غيره.. الأمر ليس مجرد أن تحب التجارة لكى تنجح فيها.. لابد من العين المفتوحة وسوء الظن.. والرجل لا عينه مفتوحة ولا عنده سوء ظن.. هو لا يشارك فى أى صفقة إلا بأن يطلب ثمنها.. يقول للمشتري: عندك الجرن.. حَمّل وشيل أو اتفضل على الجنينة قطع وشيل.. الله يبارك لك.

لا يكلف خاطره أن يذهب للتسليم أو يرسل من ينوب عنه لمباشرة البيع والتحميل، وفى الشراء كذلك، يتفق ويدفع المطلوب، ويترك

البائعين يلقون البضاعة حيث أمرهم، دون فحص أو تمحيص أو استعانة بمتخصص.. المهم أن العلمية تمت فى جلسة ودودة عائمة فوق المجاملات وأدوار الشاى والمعسل، مع سماع آخر نكتة.

سوسة التجارة تنخر فى عقله وقلبه ولا تتركه ينام.. تصور له الآمال فى عز النوم والأحلام تترى بالخير، الذى لا يحتاج إلا إلى تجميعه من العراء، ومن النجمة يبدأ العمل فى مشروع جديد وغريب، تضيع معه مساحات جديدة من الأرض، وتنسج على سيرته وفشله حكايات وحكايات تنعش ليالى السمر، ويسهر عليها أهل البلد يضحكون ويعلقون.. يمسحون بأخباره وأنباء مشروعاته عرق النهار، ومرارة المش، ويتجرع الواحد منهم بعدها قلة ماء تعيد التوازن إلى بدنه المكدود، فيحمد الله وينام مطمئنًا إلى أن الفقر أفضل بمراحل من الفشل والهم والفضيحة..

أخيرًا قرر ألا يدخل مشروعًا تِجاريًّا جديدًا، وإنما مشروع زواج يتوقع أن يكون ربحه مضمونًا.. اكتشف ذلك عندما تحاور عدة مرات ـ وكلها بالصدفة أو هكذا يعتقد ـ مع زاهية أخت العمدة العانس.

الكل يعلم أن نصيبها فى ميراث أبيها ليس أقل من ٣٥ فدانًا.. الفكرة نضجت فى الأحلام.. ربما بين اليقظة والمنام.

الطاهر عبد الظاهر.. العمدة النجس بشكله القمئ الذى يؤكد بالفعل أن أصل الإنسان قرد، وهو الدليل البشرى على صواب نظرية دارون رغم ما واجهته من انتقاد وهجوم.. الطاهر هذا أجمل منها.. هى مثله ضخمة الجثة، غليظة الصوت مثل كسبان.. طويلة الأنف.. عالية الصدر، تشبه بالضبط زكيبة القطن الكبيرة.. لكنها تتميز عن الزكيبة

بسلاطة اللسان.. هرب منها زوجها الأول ليلة الدخلة، وقبل الفجر منذ عشر سنوات، ولم يظهر فى القرية مرة أخرى، ويقال إنه لم يتحمل أسنانها القوية، على أية حال فالحقيقة والوهم حول هذه الزيجة تكفلت بها حكايات تناقلها أهل القرية..

والزوج الثانى كان ضئيل الحجم جدًّا، اختفى أيضًا ليلة الدخلة، رغم إنها غَلَّقَت الأبواب جيدًا وأخفت المفاتيح، وعند الصباح لم يعثر له على أثر.. ويقال إنه لا يزال موجودًا بالبيت فى شق من الشقوق، أو أنها ابتلعته أو....

ـ خمسة وتلاتين فدان.. يا سلام.. هى دى التجارة وإلاّ.. فلا.

تقدم رسميًّا.. وبارك العمدة الزواج، فى اليوم التالى مباشرة..لا أحد يدرى كيف.. كان كسبان وحمدان ورقية ونجية ممنوعين من دخول الأرض.. أرضهم.

كان العريس قد أفهم "كايداهم" زوجته حقيقة غرضه، وطالبها ألا تغضب أبدًا لأنه يخطط تخطيطًا كبيرًا ومدهشًا، وأنه يأمل فى ضم أرض "زاهية" الكبيرة إلى أرضهم، التى تناقصت كثيرًا فى السنوات الأخيرة، وعليه أن يعوض ما فقده.. وتحتاج المسألة إلى صبر وتماسك.. وعليها أن تثق به، وتصبر حتى يحصل على المحصول الكبير، ويعيشون حياة ثانية ومختلفة تمامًا.. ويعرفون لأول مرة طعم العز والهناء.

فوجئ العريس بأن العروس تطلب منه ضم أرضه لأرضها، يحاول بكل وسيلة.. أبدًا.. يحاول يفَلْفَص من تهديدها وقبضتها.. أبدًا.. حالة جديدة وغريبة عاشها الأولاد؛ إذ فقدوا فجأة الأرض والأب فى يوم

واحد؛ مما دفع الزوجة المحملة بالأعباء إلى مساعدة بعض العائلات الكبيرة فى جانب من أعمالها مقابل دخل ضعيف ومنافع تافهة.. والأب فقد كل حِسّ واهتمام أو على الأصح ضاع، لا.. الأفضل أن نقول هبط فى كرسى إسفنج كبير وعميق، بحيث لم يستطع النهوض..

راحت الأم تشتكى لحماتها.. قالت لها:

ـ سيبك منه.. ده عِرَّة.. ابنى وأنا عارفاه..

اشتكت لأخوته.. كلموه.. وعد.. ولا جديد.

استولت الدهشة على كسبان الصغير، الذى كشف عن مواهب مبكرة ولفت الأنظار حتى سماه البعض "حَصْوة".. ذكى.. خفيف الدم.. نشيط.. حاضر البديهة.. يتسم بالحيوية، قوى الملاحظة.. يحب أمه جدًّا أكثر من أخوته.. ينتمى لأسرته بشكل كبير.. دافع عن أخوته البنات ضد كل من تُسَوِّل له نفسه الحديث عنهن أو التحرش بهن، مع أن له أخوة أكبر من الذكور.. لكنه الديك الصغير المتحمس، أخوه كامل أكبر الأحياء يعمل فى شركة أتوبيس شرق الدلتا، ورمضان بالجيش، وحمدان وأربع بنات، ماتت منهن اثنتان بعد ذلك، تنبه مبكرًا لدموع والدته وأساها وشقائها من أجلهم.. وكثرة دعائها إلى الله ليل نهار أن يلطف بهم ويرزقهم ويسترها معهم، ويهدى زوجها المتعوس، خايب الرجا.

ذهب كسبان إلى أبيه فى دار "زاهية" الكبيرة العامرة.. كان أبوه فى الحديقة خلف الدار.. دخل .. بحث عنه.. التقط بعض ثمار التين الناضجة المتدلية من الشجر، تفتح له شفاهها بجاذبية وإغراء.. نسى أباه.. يأكل

ويأكل، حتى قضى تقريبًا فى غفلة من العيون على ثلاث شجرات، ثم انتقل إلى شجرة الجوافة، و.. لم يكد يلتقط منها عشر حبات حتى ظهر أبوه:

- دلوقتى بس افتكرت تسأل على أبوك .. كذا شهر.. ما صدقتوا إنى سِبْت البيت.

لم يستطع الولد أن يرد، ليس فقط لأنه كان "زوران" وحلقه مشحون بثمار الجوافة اللذيذة، ولكنه لم يعرف ماذا عليه أن يقول ردًّا على كلمات أبيه.. وإن كان قد خطر بباله بعد ذلك أن يقول:

- المفروض مين يسأل على مين؟

قَرَّبه الأب إليه وعانقه طويلاً، وهو يقول:

- لك وحشة يا وَله.. إزاى إخواتك..

ردَّ كسبان بسرعة:

- كويسين.. بس جعانين.

- جعانين.. إزاى الكلام ده.. أمك أصلها بنت كلب..

- أمى ح تجيب منين يابا...

- أسكت .. أسكت .. أنت مش عارف حاجة.. أمكم نايمة على خميرة- والفلوس على قلبها قد كده.

- ..

- تعالى يا كسبان أما أعبى لك كيس فيه شوية تين وجوافة لاخواتك..

فرح كسبان لأنه سيرجع لأمه بشيء من أبيه، وكان قد شعر بالأسى لأنه أكل التين والجوافة دون إخوته.

لم يشعر بالأسى حقيقة، إلا بعد أن أوشكت بطنه على الانفجار.

بعد أن ملأ أبوه الكيس، عَلّقه فى كتف كسبان وربطه جيدًا، وقال له:

ـ على البيت طوالى.. أوعى تروح هنا ولا هنا.

قبل أن يغادر الباب الكبير أمسكت به "زاهية" وأحرقته بنظراتها، وقرصته قرصة سرية فى ذراعه.. سَبَّته وَسَبَت أمه ودفعته إلى الخارج، بعد أن أخذت الكيس.. توجهت بنظراتها النارية إلى مختار:

ـ يا ترى ابنك اللى اشتراه ولا زرعه ولا لقاه فى شارع الحكومة..

ونبهته إلى أن هذه أول وأخر مرة يمد ابنه يده على شيء فى الدار .. ويفضل لو لم يحضر من أصله.

ابتلع استياءه، ولم يصدر عنه غير نظرة عتاب مسكينة.. بات كسبان ليلته فى حالة غير مفهومة.. يفكر تفكيرًا طويلاً مضطربًا ومتناقضًا.. يغضب من أبيه ثم يعطف عليه، ويبحث له عن أعذار، يكره الولية زوجته البشعة.. يفكر فى الانتقام ويفكر فى إنقاذ والده.. يفكر فى النسيان، لكنه لا يستطيع نسيان عملتها السوداء معه ومع أبيه.. الأمر معقد فى رأسه، وفى الوقت نفسه ليس بالمستطاع تركه.

دون أن يصل إلى نتيجة بالتفكير، قرر أن يخوض التجربة مرة أخرى فى اليوم التالى.. كان يحس حاجته لكى يعرف ويفهم حقيقة الأوضاع.. ذهب كسبان يسأل عن أبيه.. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه.. دخل ببطء يتلفت.. لا أحد فى الردهة الفسيحة.. اعتقد أن أباه ربما كان فى الجنينة خلف الدار، كما كان فى المرة الماضية.. فى طريقه إليه .. لمح

المطبخ بطرف عينه.. فتح أول حلة قابلته، وإذا بها مملوءة باللحم المسلوق.. وَارِب الباب وجلس خلفه، بدأ يلتهم القطع اللذيذة.. كانت طرية ولها طعم جذاب .. ياه.. لقد نسى طعم اللحم.. حلاوته لا تسرى فقط إلى بطنه، بل إنها تتسلل أيضًا إلى عروقه وعظامه وقدميه وقلبه.. تـمنى أن يظل فى موضعه هذا لا يزعجه أحد ولا تنتهى الحلة.. تمنى ألا يضطر يومًا لكراهية اللحم أو الحرمان منه، لأنه نوع مختلف تمامًا عن كل أنواع الأكل.. مضى يأكل ويأكل حتى فقد شهية التلذذ تدريجيًا، لكنه ظل يأكل إلى أن فوجئ بفراغ الحلة، فغطاها وأعادها إلى مكانها، وتسلل خارجًا دون أن يراه أحد.

حاول أن يجرى فلم يستطع.. بطنه ثقيلة واللحم صعد منها إلى ثدييه ويكاد يكتم أنفاسه، لكنه كان سعيدًا مقبلاً على الناس، ويود لو يقابل أصدقاءه ليلعب معهم بلا توقف حتى يطلع النهار، ومع ذلك كانت تهاجمه لحظات شرود إذ يتذكر أمه، وأنها تتناول عشاءها دموعًا، وأكد لنفسه أنه كان من المتعذر أن يحمل لهم اللحم.. وقد تم كل شيء بالصدفة ودون ترتيب.. وعزم على أن يحمل فى المرة القادمة كيسًا يملأه لأخوته.

قرر ألا يذهب لعدة أيام.. انتظارًا لما ستسفر عنه المغامرة الماضية.. هل يمكن أن يرد بخاطر أحد من أهل البيت أنه جاء والتهم كل ما كان بالحلة، أم سيتهم فيها العمال والخدم.

فى إحدى الليالى ذهب إلى الجنينة الخلفية من ناحية الغيط.. شرع يأكل التين والجوافة.. ولما أوشكت بطنه على الانفجار، أخرج من جيبه كيسًا ملأه بثمار الفاكهة وبعض الخيار، وأسرع بحمله إلى أمه.. أبلغها

أن أباه هو الذى منحه إياه.. وفرحت الأم بالولد، ودعت للوالد بالهداية ولما رأى بريق البهجة يطل من عيون أمه، عزم أن يكرر الزيارة...

فى مرة عثر على حلة لبن.. أقسم أن يشربها حتى أخرها.. وبر بقسمه، وما أن انتهى حتى كانت الخادمة فوقه، ولم يكن قد مسح شاربه الأبيض ولا ذقنه التى لا تزال عالقة بها قطرات من اللبن وتهم بالسقوط.. كانت الخادمة على صورة السيدة "زاهية" كأنها أختها، وكان يحسبها كذلك فى البداية، ولما تكلمت مهددة، تنبه.. فأطل فى وجهها خلسة، قبل أن تجره إلى صاحبة البيت ليتلقى عقابه الرادع، مال بسرعة بأسنانه على يدها الممسكة بكتفه فعضها عضة هينة، لكنها فزعت وتركته ففر فى ثوان.

نقل نشاطه مرة أخرى إلى الجنينة، وملأ كيسًا كبيرًا بالطماطم والفول الأخضر والكوسة والخيار وعاد لأمه، فقال:

- أبويا بيسلم عليك وبيقولك خدى حبتين الطماطم والخيار، دول على ما ربنا يسهل.

فى مرة أمسكته زاهية فى غرفة علوية من غرف بيتها الكبير العامر، ينقل الزبد من البلاص للكيس، فقررت حبسه فترة ومعه الزبد ليكونا معًا.. الجمل والجمال، ويكون البكاء على رأس الميت..بعثت لرجلين من رجال العمدة حتى يضربوه علقة محترمة تجعله يتوب، ويعيدونه محمولاً لأمه التى لابد هى التى دفعته لسرقتها.

لم تمر دقائق حتى كان فى الشارع قافزًا من النافذة، والكيس المملوء بالزبد فى يده لم يفلته إلا بين يدى أمه.. التى قالت له:

ـ ابقى قل لأبوك المرة الجاية.. تعالى اتغدى معانا فى يوم ولا اتعشى.

ـ باين عليه مش ح يقدر يا مّا.. دايما مشغول..

ـ مشغول بإيه يا وله.. لا بيزرع ولا بيقلع.. ولا بيتاجر...

ـ طيب يا مّا .. ح أبقى أقوله..

كره كسبان زوجة أبيه جدًّا، وفى الوقت ذاته أشفق على أبيه الذى لا حول له ولا قوة .. لم تغب عنه المعاملة السيئة التى تنتظر أباه دائمًا على يدى "زاهية" الجبارة، ولم يكن يتصور أباه أبدًا كما يراه فى حالته الجديدة.. ساكنًا ومستسلمًا.

قرر أن يلحق بها الضرر، وأن يستولى على بعض الأطعمة وغيرها، مما ينفع بعد أن يتناول حصته .. فى مرة أخذ عشر بيضات ودجاجتين، وجدهما فى حلة، وقد نزع عنهما الريش ولم يتم طهيهما بعد، ومرة التهم نصف صينية بسبوسة وحمل نصفها الآخر.. وفى مرة أخذ فروة خروف ورأسه والكوارع، ولم يتمكن من العثور على أى جزء من لحم الخروف، وكان يأمل جدًّا أن يحصل ولو على فخذ.. وفى مرة أخذ شبشب حريمى نبيتى، لم تدخل فيه قدم بعد ومازال فى صندوقه.

تعددت الإغارات وتنوعت الفرائس، فقد قرر أن يأخذ حق أخوته من مال أبيه وخيره.. لم يعد يدخل من الباب، وآثر طريق الجنينة ومنه إلى البيت إذا أراد، أو الاكتفاء بالمزروعات حسب الطلب.. حمل الملاعق والأكواب وتقدم إلى الذهب، وفى مرة عثرت به الخادمة فى

غرفة النوم التى لا تدخلها إلا صاحبتها، فصرخت، وأسرعت إليها "زاهية" والخادمة الثانية والجناينى..

استطاعوا الإمساك به .. اضطر لبلع خاتم.. فتشوه فلم يعثروا على شيء.. أرادوا ضربه علقة ساخنة دون انتظار أحد، سحبت "زاهية" سوطًا كبيرًا ومخيفًا من خلف الباب، وقبل أن تهم كان كسبان قد أفلت من الجناينى والخادمة، وبعد وصوله الدار حاول أن يتبرز عدة مرات دون جدوى، وفى الصباح تبرز ولم يجد الخاتم، وفى المساء أيضًا ولم يجده وظل مشغولاً به.

فى إحدى الليالى، وكان الجو صيفًا .. اصطاد سمكة كبيرة. كانت قرموطًا أسود.. استخدم حبلاً صعد به إلى نافذة غرفتها، وألقاه بقوة، فوقع على سريرها، ولما دخلت ورأته فى ظل نور شحيح يتقلب ويتقافز، أصابها الهلع فصرخت وزاد فزعها، بعد أن أضاءت اللمبة الكبيرة.. رأته وهو يتحرك بحماس شديد على الملاءة البيضاء، ويدفس نفسه فى أغطية الفراش باحثًا عن الماء.

أدركت أنه قرموط سمك، لكنها ظلت تتصرف على أنه ثعبان سام ومخيف يمكن أن يبتلعها، وأنبأتها الخادمة أنه "عمل" وضعه كارهوها حتى لا تنجب.

وما أثار الدهشة حقًّا أن كسبان ظل مختبئًا فى كوخ قريب مهجور، يستطيع منه وهو على مسافة لا تزيد عن عشرين مترًا مراقبة نافذة غرفة النوم.. وكان يتوقع أن يعيدوا إليه القرموط، بعد أن يؤدى رسالته ويقوم بمهمته..

وما هى إلا دقائق حتى كان بين يديه، فحمله وعاد إلى أمه والقرموط على ذراعيه كالرضيع.. حدقت أمه فى النور الباهت، ولما أدركت أنها سمكة كبيرة تهللت أساريرها.. ومدت يديها وهى تقول:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.. أنت اللى اصطدته.

ـ أيوه يا أمى.

ـ ده كبير يا وله.

ـ يللا صحى أخواتى.. علشان يأكلوه.

ـ دلوقتي؟

ـ حالًا.. أنا ح أساعدك...

فى الصباح نزل الخاتم مع البراز بعد نحو أسبوعين، وكان قد عزم ألا يتوقف عن التفتيش فى الفضلات حتى تقع عينه عليه، مستبعدًا أن يظل إلى الأبد فى قاع أمعائه.

قال لأمه:

ـ خدى يا أم.. يظهر القرموط هو اللى نزله.

ـ الله ده خاتم جميل وفيه فص كبير.

ـ مش مهم يكون جميل أو له فص.. المهم إنه نزل.

ضحكت أمه وقالت:

ـ أيوه صحيح.. ربنا يحفظك.

(٦)
الوليمة والمطاردة

مضى الحال على هذا المنوال لأكثر من عام.. عمليات صغيرة محدودة التأثير وزوجها يدعوها للنسيان والعفو، ويحدثها عن لعب العيال، وعن عقلها الكبير.. إلخ.

فى مرة رأته "زاهية" وهو يركض خارجًا من باب بيتها الداخلى فاندفعت نحوه.. كان عليه أن يجتاز الفناء الفسيح، ولما كان قد نفذ من الحديقة فقد فوجئ بالبوابة الخشبية مغلقة، وأدرك أنه حوصر واستشعر الخطر؛ خاصة مع ظهور عدد من الرجال استنفرتهم "زاهية" للقبض عليه، أحست أنها لأول مرة سوف تتوافر لها الفرصة لتقتص منه القصاص الذى يرضيها ويقطع رجله من المنطقة كلها، سوف يكون العقاب كافيًا لجعله يندم على اليوم الذى خلق فيه، واليوم الذى عرف فيه طريق بيتها.

عندما وصل الرجال إلى المكان الذى أشارت "زاهية" على حتمية وجوده فيه، لم يجدوه.. قلبوا الأرض وبطنها بحثًا عنه.. الفناء وغرف البيت غرفة غرفة والمخزن والسطح والجنينة.. دون جدوى.

بعد ما يقرب من ساعة خرج من مخزن التبن المطل على الفناء، وكانوا قد بحثوا فيه، ولكنهم لم يتوقعوا أن يكون قد دخل جبل التبن الذى يعلو حتى السقف، ولم يتصور أحد منهم أن يدخله ويكتم أنفاسه هذه المدة الطويلة.

ارتاحت "زاهية" من هجماته نحو ثلاثة أسابيع، حتى كادت تتيقن إنه بالفعل لن يعود.. لكن الضربة هذه المرة ثقيلة، وكان من الطبيعى أن تثور "زاهية" وتحشد جيوشها ضده، بوصفه الإرهابى الوحيد والرهيب الذى لابد من وقفه بكل الوسائل وإلا ضاعت الهيبة ...

أقامت "زاهية" وليمة كبيرة للضيوف الكبار القادمين لأخيها العمدة.. وبينما العمل فى إعداد الوليمة يمضى على قدم وساق، تسلل كسبان وجمع اللحم كله وبشتى صوره فى كيس كبير، انتهى الأمر فى أقل من دقيقتين، ولمحت أم رشاد الخادمة السمينة شخصًا قصيرا أو كأنه صبى يجرى ولم تتنبه تماما، وهى ترجح أنه كسبان.

كان المساء قد بدأ يبسط خيمته.. الرؤية تقتصر على المسافات القريبة أو المضاءة.. أسرع الرجال الذين فى خدمتها بالعدو وراء شخص لا يرونه.. قيل لهم إن شخصًا خفيف الحركة انطلق من الدار، فانطلقوا فى إثره، مضى أمامهم كالشبح لا يكادون يميزون له ملامح أو سن..

بحذاء النهر.. جروا وراءه وانتظروا على نور دكان "رحمة" إلا أنه لم يظهر.. اختفى فجأة بعد أن كان على مدد الشوف، وكانوا على ثقة حتى آخر لحظة أنه لا يبتعد عنهم غير خمسين مترًا أو يزيد قليلاً.

البعض يؤكد أنه الولد كسبان والبعض لم يجد الدليل على ذلك، لأنهم كانوا فى الناحية المعاكسة لخروجه، ومن يؤكد أنه هو فلا شك لمحه بأى صورة.

ها هو النهر والطريق إلى جواره.. لا أثر فيه لمخلوق.. وقعوا فى الحيرة إذ كيف يعودون للسيدة "زاهية" دون الجانى، وكيف يطاردون وهمًا وماذا عليهم أن يفعلوا الآن؟ فليس من الكرامة أن يعبث بهم صبى.

أشار أحدهم أنه لا يستبعد أن يكون قد هبط إلى النهر، وهو لابد فى هذه الأمتار المائة.. من النخلة المحروقة حتى الدكان، اقترح أحدهم أن يتوزع الأربعة على هذه الأمتار، فيراقب كل منهم خمسة وعشرين مترًا تقريبًا.

اعترض آخر.. اضطروا للموافقة والإذعان حتى يكونوا قد أدوا ما عليهم وزيادة.

وقفوا وحدقوا وأنصتوا وراقبوا صفحة الماء المظلمة بلا جدوى، وبعد ما يزيد عن ربع الساعة قرروا العودة، موجهين أشد اللوم لأنفسهم على هذه البلاهة، وعلى من أشار بهذا الرأى الأحمق.

كانت "زاهية" تلطم خديها وتصرخ وتلف حول نفسها.. وتدفع من يقف فى طريق الفلك الذى تدور فيه..

ـ أودى وشى من الناس فين.. أودى وشى من أخويا فين؟.. أروح فين وآجى منين؟.. مصيبة حطت على.. حطت على العيلة كلها.. مؤكد هو كسبان الكلب، كان يوم منيل يوم ما اتجوزت فيه المخبول أبوه.

عندما أطلقت الرجال وراء من تحسبه كسبان، لم تكن تعرف حجم الخسارة ولا ماذا حمل من خيرات البيت، كانت فقط تريد الإمساك به لضربه علقة يتوب بعدها، وربما يعود إلى داره فلا يخرج منها أبدًا .

اقترحت خادمة أن يهجم الرجال على الدار.. انفجرت "زاهية" موافقة :

ـ بسرعة .. بسرعة.. الحقوا اللحمة قبل المفاجيع ما يخلصوا عليها.

زلزلوا البيت من الطرق على الباب.. دفعوا أمه من الطريق.. قلبوا البيت بحثًا عن كسبان.. وجدوه فى سابع نومة.. نقبوا فى كل ثقب عن اللحم.. وجدوا الدار خالية تماما حتى من الخبز...

عادوا وأخبروها بالحال، قال أحدهم :

ـ ظلمنا الولد.

صرخت فيه — اسكت .. امشى غور.

كان كسبان بالفعل قد اختفى فى النهر حاضنًا الشوال الضخم، وبعد فترة عبر النهر وعاد إلى داره وأخفاه فى المحمى (بيت نار الفرن).. دفسه عميقًا وسط الحطب المحروق والسُّخام.

أيقظ أمه بعد نحو ساعة وأطلعها على اللحم، الذى أرسله أبوه دون أن تعلم زوجته، ولما علمت يبدو أنها ثارت.

ـ إنت عارفاها ولية مجنونة.

تنهدت أمه وقالت :

- وكان إيه اللى غصبنا، ما كنا مرتاحين.. خسرنا الجلد والسقط.. خسرنا الأرض وخسرنا أبوك.

- صحى إخواتك يا كسبان ياكلوا..

شردت ودعت لزوجها أن يفك الله حبسه، ثم قام الجميع فهجموا على اللحم.

كان أبوه يتابع أخباره عن طريق الخادمات وبعض الخفراء، وقليلاً ما يعرف عنه شيئًا من "زاهية" إلا فى حالة غضبها الشديد.. همه الأول ألا يكون أحد قد أمسك به أو أذاه، وفور أن يعلم بإفلاته يرقص قلبه.

لم تمنعه مغامرات ولده من أن يجهز له بعض الأشياء ليحملها سرًّا إلى الدار، وإذا رآه مرة عرضًا يطلب إليه أن يحضر إلى طرف الجنينة الغربى غدًا، بعد العشاء ليأخذ الأمانة ويسلم على أمه.

فى إحدى الليالى وقبل صلاة الفجر، سمعت "كايداهم" خبطًا هينًا وممتدًا على نافذتها، وهمس:

- افتحى يا أم كامل.. افتحى .. أنا مختار.

فمه مدفوس فى الشباك والكلمات تعبر من شقوق الخشب.

فتحت ودخل حاملا كيسين كبيرين، بهما أطعمة وبعض الملابس للبنين والبنات.. جلس والأولاد حوله.. كل دقيقتين يضمهم إليه ويقبلهم.

تكررت هذه الليلة عدة مرات على مدار سنتين.

تسأله زوجته:

ـ إيه آخرة اللى إحنا فيه.

ـ اصبرى.. لازم ح أطول اللى فى دماغى.

ـ إحنا مش عايزين اللى فى دماغك.. إحنا عايزين دماغك ذات نفسها.

ـ اصبرى.

أصبح مختار يشعر أنه كم مهمل ولا قيمة له ولا دور فى البيت أو فى الغيط.. وقته كله موزع بين الدوران فى الجنينة والنوم والتلفزيون، ويلف سجائره ويغنى، إلى أن وجد نفسه فى ليلة يصحو فى الفجر منتعشًا وبرغم البرد.. يستشعر رغبة قوية فى الصلاة.. توضأ وصلى، ثم صلى، وقامت "زاهية" من نومها مندهشة.. قالت:

ـ ألف بركة.. ربنا يهدى كمان وكمان.

أعادت لف جسمها جيدًا بالبطانية، وسرعان ما علا الغطيط الذى بدا كأنه يخرج من كائنات أسطورية تسكن تحت الأرض، وتبعث رسائلها إلى أسقف البيوت.

لم يتوقف كسبان عن الظهور والإغارة.. ولم يتوقف الخفراء الذين زاد عددهم عن مطاردته، واعتادوا طرق باب داره، بعد أن قالت "زاهية" لأخيها بحرقة:

ـ الولد خلاّ حياتى جحيم، لما بقيت أحلم به.

فى مرة حلمت أنه شد لسانها بقوة وإلحاح، لم ينقطع اللسان لكنه طال معه وامتد، حتى أنها كانت تحس أنه سينقطع من جذوره التى تصل إلى بطنها، وأخيرا انقطع، ورأته يركبه ويطير به فوق الشجر.

فى مرة حلمت به نائمًا إلى جوارها يشفط أثداءها التى كانت تتدفق بسائل له رائحة الثوم، وبعد أن شبع تقيأ هذا السائل من جديد فأغرق الفراش وكان مثل ريم البرك.. وكانت تتحرك فيه بعض الديدان التى كانت تجتهد فى حركتها متجهة إلى حلمات ثدييها.. كانت الديدان مرعبة.. مرعبة، دفعتها إلى أن تغيب عن الوعى..

كان الخفراء قد تعبوا من مطاردة كسبان الشقى، الذى لا يستطيع شخص أن يلحقه مهما كانت سرعته، ولا يستطيع أن يستمر قابضًا عليه لو حصل، فالولد لا تنفد حيله، حتى أنه ركب مرة فى حذائه مسمارًا وضرب به الخفير فى ساقه، فأطلق صرخة ومعها أطلقت يده الشيطان الصغير، ومرة بخ الماء فى وجهه من بالونة، ومرة عَفَّر آخر بالتراب وأفلت، ومرة ألقى ثعبانًا جلديًّا على وجه القابض عليه. ومرة ألقى عليه خنفساء، وألقى فى وجه آخر ضفدعة، وما أن يضطرب للمفاجأة حتى يختفى كسبان فى عشر ثانية..

المرة الوحيدة التى استخدم فيها العنف مضطرًا لذلك، حدثت لأن الخفير كان متنبهًا جدًّا وقويًّا جدًّا، ولكنه فوجئ فعلاً بضربة قوية فى أنفه، لم تؤثر فيه، لكن المباغتة كانت كافية لإرباكه وإفلات المتهم..

لذلك بدأ الخفراء يتمردون، وما أن يطالبهم العمدة بسرعة القبض على هذا الفأر، يتبادلون النظرات فى سهوم، ويتمتمون جميعًا فى نفس واحد:

ـ كسبان لأ.. الولد ده لأ...

وعندما يصرخ العمدة، يبدأ كل منهم بالتعلل بأسباب تمنعه من أداء الخدمة، وإنه ليس لديه مانع أبدًا ولكن...

ـ بطنى من ساعة الصبح مقلوبة مش عارف ليه.

يسرع العمدة قائلا:

ـ من كتر الحشر يا خويا.. روح إنت يا رزق وخد معاك..

ـ أنا يا حضرة العمدة رجلى الشمال مش قادر أحركها.

ـ عقبال رجلك اليمين.. روح أنت يا زكريا .. أنت الوحيد العِدِل فيهم.

ـ أنا يا حضرة العمدة حلمت إنى ح أغرق النهاردة، وأنا أحلامى ما تخيبش.

ـ إنت غرقان غرقان، حتى لو فى الغيط ح تغرق.. مكشوف عنك الحجاب يا سيدى.. آه...من كتر الخير اللى بتعمله.

ـ صدقنى يا حضرة الـ...

ـ أصدقك أنت.. إنت خِبْت واللى كان كان.. تعالى يا واد يا خليفة.

ـ أنا يا سيد الناس حاسس.. حاسس.

ـ إيه حتولد النهارده؟

ـ أولد إيه.

ـ ح تموت أنت كمان وتريحنا.

ـ لأ.. نفسى غَمَّة على.

ـ مش بقولك ح تولد.

ـ لا يا سيد الناس.. دايخ ومش قادر أصلب طولى.

ـ وأنت يا طويل على الفاضى.

ـ أنا الولد ده يا حضرة العمدة متغاظ منه جدًّا

ـ عال.. عال.. شايفين يا بقر.

ـ وشايف بصراحة أنكم مِدَلَّعينُه، علشان ابن جوز أخت حضرتك.. عيار واحد فى رجله يتعلم الأدب.

يدفعه العمدة فجأة فى صدره قائلاً:

ـ اتنيل..

ـ اسمعنى يا باشا.. علقة محترمة، ينكسر له فيها دراع او دراعين يبقى تمام.. صدقنى.

ـ إنت مش مسئول عن عقابه يا نخلة ما بتطرحش.. أنت تجيبه بس.

ـ علشان أجيبه ..صعب.. صعب قوى، أصله بيجرى بسرعة وينط من فوق الأسطح، علشان كده عيار واحد.. يخلص.

ـ عايز تضرب عيار ميرى على عيل يا حمار.. هوه أنت فى الصحرا.. أنت فى بلد والناس شايفة وشاهدة.. عايز تسلمهم الورقة اللى يضربونى بيها.. مش بقولك نخلة.. وما بتطرحش.

ـ أوامرك يا عمدة.

ـ تجيبه حالاً.

ـ أصل أنا.

ـ امشى انجر خد معاك اتنين تلاتة من البلاوى دول يحلقوا عليه ويَاك.

كان كسبان يتسلق أعلى الأشجار فى ثانية، ويقعد يوم بكامله وربما الليل أيضًا.. لم تكن لديه مشكلة، فهو يأكل أى شيء فى الموضع الذى يضطر للبقاء فيه، فى مرة قال وهذه هى الحالة الوحيدة التى لا دليل

عليها.. لكنها غير مستبعدة تمامًا، فمثلها حدث فوق الماء — أنه أكل سمكًا بينما يختبئ تحت الماء.

لا مانع لديه مطلقًا أن يأكل من ورق الشجر.. أيا كانت الشجرة حتى لو كافور أو صفصاف.. ما دام الوقت قد طال وهو مرغم على الاختباء.. فى بعض المطاردات تنقل من شجرة إلى شجرة، ومن سطح إلى سطح إلى أن وجد ما يخفيه عن المطاردين.

على الأرض سريع الركض، خفيف الحركة، بشكل لا يمكن للعيون أن ترصده.

عندما بلغ الخامسة عشرة كان جسده قد تشكل ، وبانت قليلاً تقسيمة العضلات، وخط شاربه واتسعت عيناه وقوى فكه، واعرَضَّ كتفاه وشرعت مرحلة جديدة نسبيًا فى أدائه، تبلور سلوكه المضاد لطارديه وطالبى الانتقام منه، فقد أصبح يواجههم، ولا يتعجل الفرار منهم، ويدافع عن نفسه بشراسة لافتة وغريبة .. أصبح قادرًا على استخدام يديه ورجليه بشكل خاطف وسريع، وبالتوازى مع قوة أدائه أصبح مادة لبعض الحكايات التى يتناقلها الناس، ومادة جاذبة للانتباه ومعينة على السهر، وذات طعم شائق، ويبعث المتعة لدى كثير من المقهورين..

غدا بالتدريج يدخل إلى بيت أبيه علانية، فيأخذ ما يشاء أمام عيونهم دون أن يجسر أحد على الاقتراب منه أو منعه، ولو فكر فى عمل شيء يعرف جيدًا ما سيحدث، وعليه أن يتحمل النتيجة وحده..

تحدث العمدة إلى والده مرارًا بالكلم الطيب حينًا والتهديد حينًا، وأخيرا قرر الهجوم بنفسه بعد البكاء المستمر والإلحاح الذى مارسته أخته معه، والضغوط المتواصلة واتهامه ليس فقط بأنه غير قادر على ردعه، ولكن على أنه هو الذى يدفعه لذلك، وإلا فما السر فى أنه يفعل ما يشاء دون أن يجد من يردعه، وكأن البلد ليس فيها كبير.

قرر أن يتوجه إلى بيت كسبان بكل الخفراء، وعلى رأسهم شيخهم قبل منتصف الليل.. قبضوا عليه ووضعوه فى الحجز إلى حين نقله إلى المركز فى الصباح.

أخيرا ستنام "زاهية" والعمدة وجميع الخدم والعمال والخفراء .. قالوا جميعًا فى نفس واحد:
ـ ياه.. انزاح الكابوس أخيرًا.

اتفقت معظم الأحلام التى طافت بمنام الجميع حتى الذى لم يحلم فى عمره على عرض مشهد واحد، هو مشهد العلقة الساخنة التى سيتلقاها كسبان فى المركز، فهناك ضباط لا يعرفون الرحمة ولا يحبون التسيب، ولا يتحملون وجود شاب مزعج كهذا الولد المشاغب، وسوف يجد الضباط فى المركز لذة فى أن يعلموه الأدب ما دام أهله تخلوا عن تربيته.. كانت الأحلام فى أغلبها ملونة ولذيذة، وكان الخفير الحالم يشارك العساكر فى المركز ضربهم كسبان، واشتكى من قوة لكماته من ينام إلى جواره.

لم يكن الحالمون يعلمون أن كسبان لم يبق فى الحجز نصف ساعة، غادره من النافذة التى خلع حديدها، وكان قد ادعى أنه نائم يغط



"قرر أن يتوجه إلى بيت كسبان بكل الخفراء، وعلى رأسهم شيخهم"

غطيطًا عاليا يدل على أنه لم ينم منذ شهور، فاستسلم الجميع للنوم مثله وتخلى عن الحراسة من كان يتعين عليه أن يقوم بها شاكرا لكسبان هدوءه؛ إذ لابد أنه أيقن أن عهد المشاغبة انتهى، وقد آن للحكومة كسر أنفه..

لم يهرب بعيدًا عن البيت، لكنه انتظر الخفراء واستطاع أن يضرب الخمسة الذين ذهبوا فى الصباح لاقتياده، وأصاب بعضهم إصابات موجعة لأنه كان يستخدم حديد نافذة الحجز واستوقف الأخير منهم الذى يتحمس للمعركة، وسلمه الحديد مطالبًا إياه أن يحمله معه حتى يركبه العمدة فى موضعه..

انتهت هذه الفترة البرية فجأة، عندما طلب منه الشيخ فتح الباب واعظ المسجد أن يعمل فى أرضه فقبل، وطلب منه حسنين كمونة أن يعاون مزارعيه فقبل، وأخلص فى العمل وأنجز مهمات ثقيلة بسرعة.. فحفر قناة رى صغيرة طولها مائة متر فى ساعتين، وكان يعزق الفدان وحده فى نصف يوم.. ويعجن الطين والتبن، ويصبه فى قوالب لتكون طوبًا من اللبن، تصل كميته إلى ألفى طوبة فى يوم واحد..

تناقل الناس بدهشة بالغة أخبار قوته فى العمل وإيقاعه السريع، وإتقانه فى التنفيذ.. فأقبل كثيرون على دعوته؛ خاصة أنه لا يساوم ولا يبتز ولا يطلب الكثير.. بل لقد نشبت معارك بين طالبيه، وتسابقوا فى الاتفاق معه على أعمالهم.

لما استراحت منه "زاهية" واستعدت للاستمتاع بحياتها.. ماتت.. هكذا فجأة ماتت.. ماتت فى المرحلة الزمنية الواقعة بين نهاية الشباب وبداية

الشيخوخة، أو وهى فى عز الكهولة.. ماتت بلا مرض ولا ألم ولا ضجيج.. نامت فلم تقم.. ولم تتح لها الفرصة كى ترى الكوابيس القادمة من إبليس وجماعته، ولم تستشعر أى إشارة أو علامة على النهاية.. كل ما كان يشغل بالها، هو عدم قدرتها على الإنجاب، وخيبة أملها فى مختار حتة، الذى توقعت أن يكون مصدر سعادة وبهجة وونس.. لكنه جاء إليها وفى أعقابه الخطر كله متمثلاً فى ابنه الشيطان كسبان..

كما كان يشغلها جسمها الثقيل وعدم قدرتها على الحركة والسفر والنزهة.. كم كانت تحلم برغبتها فى زيارة الإسكندرية والتمتع بنسيم البحر ولمسات الماء المالح على الشاطئ والشمس تلعب مع الأجسام لعبة لذيذة.. كم كانت تتمنى أن تزور الأولياء فى القاهرة.. كل يوم تقول غدا.. كل أسبوع تقول سيكون ذلك بإذن الله الأسبوع القادم، وكل شهر تنوى أن يكون فى الشهر الذى يليه..

مضى العمر موزعًا على الهموم ولا أحد يشعر بها.. هكذا تظن.. حتى العمدة لم يهتم بأمرها.. كان مشغولاً بالمسئولين الكبار وكيفية الحصول على رضائهم ومهتمًّا بأولاده، وابنه المقرف طارق الذى يشبه ذيل الفأر.. الكل بحث عن نفسه وأهملها، ولم يبق لها أنيسًا إلا الوحدة والهم.. إذا كانت هذه الحياة، فالحمد لله على ما مضى وما هو آت لا مبرر له... فوجئ مختار الذى يهيم على وجهه بين المسجد والجنينة، وعرف الطريق إلى المقهى بأن الأرض كلها أصبحت ملكًا للعمدة، الذى أعلن أن مختار باعها له والعقود موجودة لمن أراد أن يلقى نظرة.. "كايداهم" ذهبت إليه وصرخت فى وجهه وبصقت عليه

واضـطر لطردها، وحرر حـمدان محضرًا فى المركز ضده وانتهى إلى لا شيء.

عاد مختار إلى منزله القديم وهو فى حالة رثة، شعر طويل وشارب متهدل ولحية مهملة وعيون زائغة وخطوات مضطربة.. يلوذ بالصمت.. تتجمع بسرعة فى عينيه الدموع، التى يحاول مسحها إذا سقطت على خديه بكم الجلباب القذر.. رحبت به "كايداهم" وهى فى حالة لا حدود لها من الغيظ والكمد، تود لو تخنقه، وتشفق عليه، تهم كل لحظة بتأنيبه وسبه، لكنها بدلاً من ذلك تعد له كوب الشاى أو الجنزبيل الذى يحبه.. وفى مرات كثيرة قامت بسحبه إلى الحمام وحمته بنفسها وحلقت شعر ذقنه وإبطيه وعانته وبخرته وعطرته وضمته إلى صدرها ثم بكت....

بكت كثيرًا وحملت الدموع والنشيج كل أوجاعها، وآلامها المتعلقة على نار السنين والأيام وساعات الليل المؤرقة بالسهاد والحيرة والدهشة لحال زوجها الطيب.. جسدها ينتفض وهو بين أحضانها، وتترك له الفرصة أن يحكى باهتزازته ونبضه المحموم لجسد زوجها ما كانت تود أن تحكيه له من معاناة وصبر ثقيل.. كانت تود أن تعبر له عن أساها لإهماله وسوء تفكيره، ووقوعه فى أسر الحيل الكثيرة وضياعه فى دوامة التجارة، والنهاية التى جاءت على يد زاهية الجبارة.

لماذا لم يحس بها وهى أم أولاده؟..

أخيـرًا أدركـت أن جسـدها المتشـنج أبلـغ الرسالة لجسد زوجها.. فها هو الآخر يرتعد بين أحضانها ثم ينفرط فى البكاء.. جسدان

عجوزان متعانقان.. يلفهما الأسى والشجن والحب والندم.. جسدان تحولا إلى جسد واحد نصفه عار والآخر نصف عار، جسد واحد يبكى انفلات الزمن وضياع الفرص، ومع ذلك يستشعر أن ثمة أملاً يطل من طاقة صغيرة جدًّا.. جدًّا، لكنه أمل..

فى اليوم التالى مباشرة أخرجت قطعتى قماش صوف من تحت مرتبة سريرها، وأسرعت إلى داود الخياط لتفصيل جلبابين للحاج مختار.. أوصته بأن يختار أحسن تصميم ويهتم بالأزرار "والقيطان" حول فتحة الصدور والكمين.

لزم مختار المصطبة دائم الشرود، فى يده مسبحة، يسقط حباتها كمن يسبح الله، دون أن يبدو عليه شيء من ذلك.. لا يكاد يهش عن وجهه الذباب.. إلى أن مات فى يوم قريب وهو جالس، دون أن يدرى بذلك أحد، فقد كانت حبات المسبحة تتساقط فى اتجاه الله كما اعتاد الناس أن يشاهدوه على مدى شهر فترتين فى اليوم .. فترة فى الصباح إلى الظهيرة حيث تقترب منه الشمس، وفترة العصارى إلى أذان المغرب، يمر به الخلق، فمنهم من يحييه، ومنهم من لا يحفل بذلك، وهو فى كل الأحوال غائب إلا قليلاً، ففى بعض المرات، كان يستطيع الرد.

مات يوم وفاة السادات.. انشغل الناس عنه بمتابعة اغتيال رئيس الدولة فى الاحتفال الكبير، المقام بمناسبة ذكرى حرب أكتوبر.

قالت أم كسبان وهى تحاول منع دموعها:

ـ عيلتنا حظها سيئ.. أبويا مات يوما ما قامت الثورة، الناس كلها اتلفت حوالين الراديو الوحيد فى البلد.. كان عند عكاشة أفندى ناظر المدرسة الله يرحمه .. الراجل طلع الصندوق الخشب اللى بيشتغل بالبطارية وحطه على سور الفراندة وعلاه على الآخر.. الناس فضلت قاعدة قدامه لبعد العشا بمسافة، وأمى ماتت يوم هجوم اليهود على مصر.. فى الحرب اللى سموها النكسة.. اللى يا حبة عينى عبد الناصر.. ما قامش من يومها.. وأخويا زين شباب البلد.. مات يوم وفاة عبد الناصر.. ما حدش عبرنا.. عيلتنا كبيرة ومقامها عالى، لولا بس الظروف.

لم تذكر " كايداهم" التى انفرطت دموعها وعلا نشيجها شيئًا عن الخيبات الشاملة والكاملة التى يحتشد بها تاريخ عائلتها ذات المقام العالى.. وآخرها أعمال زوجها (خالى مختار)، لقد تزوجته عن حب، وترسخ هذا الشعور فى كل خلية من خلاياها، منذ كان يرسل إليها الهدايا إبان فترة الخطوبة، ويأخذها كثيرا للنزهة فى الشهور الأولى للزواج، وبرغم زوال أيام الرقة والحنان والكرم المتدفق، إلا أنها ظلت حتى رحيله تعامله اعتمادًا على ذكرى الأيام الحلوة، فلم يؤثر فيها ما فعل، ولم يقلل من حبها له تبديده للأرض، وإهماله للأولاد وتجارته الفاشلة وزواجه من أخرى، كأن ذلك كله كان كتابة على الماء، والسابق عليه كان حفرًا على الحجر، بل كانت تدافع عن أخطائه، وتعدد المبررات التى دفعته لأن يفعل هذا السلوك أو ذاك..

فجأة جفت دموعها تمامًا واستقبلت عيونها نهارًا جديدًا تماما عوضها عن كل أيام الحزن، عندما فوجئت بمن يخطب ابنتها نجية.. ابن

شقيق الشيخ فتح الباب.. شاب طول بعرض، على خلق وبه رجولة يدركها من يراه منذ الدقيقة الأولى، ويعمل شرطى أمن فى فيلا كبيرة من فيلات رجل أعمال مشهور، وإن كانت سنه خمسة وأربعين، فليس عيبًا، فالفارق لا يتجاوز اثنى عشر عامًا.. بكت نجية التى كانت قد فكرت أن تشعل فى نفسها النار لولا وفاة والدها..

كانت تأمل أن تثير استقالتها المسببة من الحياة قضية كبرى.. تلفت الأنظار إليها وإلى مثيلاتها.. لكن ربنا أراد أن يخيب ظنها ومسعاها، وأكرمها بزيجة أكثر من جيدة.. أوقفت حريقها وجففت دموع "كايداهم" التى بدأت تستشعر بشكل غامض أن الأحزان قررت الرحيل، وأن ثمة أملاً فى أن تكون بقية من حياتها مسرحًا لبعض الأيام السعيدة.

(٧)

قل يا شاعر

بعد أن تجنبته فترة طويلة تذكرته فجأة، وكنت أطل من شباك المدرسة بينما التلاميذ يحلون أسئلة النحو التى كلفتهم بها، رأيته واقفًا فى الساحة الفسيحة أمام المسجد، يتلفت حوله ويتطلع إلى السماء وإلى الأرض ويهرش ذقنه ويضع يده فى جيبه ويخرجها..بدا حائرًا وفارغًا وضائعًا.. أشفقت عليه..

ـ لابد أن ابن خالى ذكى ولديه الإرادة بدليل أخباره ومغامراته، لكنه مع زواج أبيه قبل سنوات من السيدة "زاهية" تخلى عن الدراسة، وتوقف عند السنة الرابعة الابتدائية، وهكذا يمكن أن يتفرغ للضياع وقتًا وعقلاً وروحًا.

عدت إلى التلاميذ بنصف عقل.. فقد أخذ كسبان النصف الآخر.. عدت إلى البيت وطيفه معى حتى المساء، بل إلى ما بعد منتصف الليل، وأخيرًا نمت ومعى فى الفراش، قرار مهم سوف أبذل جهدى لتنفيذه.

فى الصباح أقنعته بالعودة للدراسة، وإذا كان قد فات عدد من السنوات، ولن يستطيع الانتظام رسميًّا فى المدرسة، فعليه أن يدخل امتحان الابتدائية عن طريق المنازل.. دهشت لأنه وافق على الفور، وكنت أشك جدًّا فى ذلك بعد طول الغياب، خاصة بسبب طبيعته البرية التى لا تحتمل القيود، فهو لم يحتمل وجود ساعة فى يده، وكان أخوه الكبير كامل المقيم فى السويس قد أحضرها له.. سرعان ما باعها وسلم كل ثمنها لأمه، لم يكن السبب الحاجة إلى المال، بل عدم تقبل القيد..

تكفلت بتقديم أوراقه وتوفير الكتب والشرح له ومتابعة تحصيله.. استجاب للدراسة وفتح كل عقله للاستقبال والاستيعاب، وكانت المهمة بالنسبة لى سهلة، توجها بحصوله على الشهادة الابتدائية ودفعته للمواصلة.. تعذر دخوله المدارس الإعدادية، وتعهدت بأن أدفعه لدراستها بالمنازل والدخول مباشرة إلى الامتحان.. وتعهد بأن يكون طوع أمرى شاكرًا رعايتى، مستشعرًا حلاوة التعلم إلى أن حدث ما حدث.

كان كسبان قد تأكد بنفسه من صحة الأخبار، التى تحكى عن معاملة أنس شقيق العمدة للعمال فى المزارع والحظائر والمخازن التى يمتلكها على حدود الكفر الجنوبية، كما أنه يأكل حقوقهم ويفرض عليهم العمل ساعات طويلة من النهار والليل فى مقابل قروش قليلة.

بدأت القصة بأن كسبان كان على الطريق فى المساء قادما من بيت أخيه حمدان الساعى بمصلحة الضرائب، فعثر بشخص راقدٍ على الأرض يتألم، أعانه وخفف عنه وتعرف عليه.. كان عاملاً فى مزرعة

أنس، وبقيم مؤقتًا مع سليم البكرى زوج عمته، لكنه يعتبر إلى حد ما غريبًا عن البلد.. حمله إلى بيت سليم وهو فى حالة سيئة، وبقى معه حتى تحسنت حالته، ورأى يديه ورجليه الملتهبة وجسمه الهزيل.. دار الحوار، امتلك الرجل بعد ساعة القدرة على الكلام، فحكى لكسبان جانبًا مما يحدث فى المزرعة من سوء المعاملة وكثرة المجهود.. هذه الليلة شهدت قيام العامل بإنزال خمسة عشر طنًا من العلف؛ أى ثلاثمائة شيكارة كل منها خمسين كيلو جرام علف مركز وذرة مدشوشة وقشر فول.. أنزل الكمية وحده ورصها جميعا فى آخر المزرعة.. وكان أنس قد كلف الآخرين بأعمال مشابهة، مثل تجميع الدواجن فى أقفاص لبيعها، وبعضهم كان فى حظيرة الماشية..

فى اليوم التالى زار كسبان المزرعة فى المساء متخفيًا، ولاحظ معاملة أنس ورجاله للعمال ومعظمها يتم بالضرب والسب.. فكر أن يسرق جاموسة من الحظيرة ويتصرف فيها بالبيع أو الذبح أو أى تصرف يؤذى أنس.. لكنه أدرك أن الضرر سيقع على العمال والخفير.

زار فيلته فوجد ملحقًا بها حظيرة فيها ثلاثة أبقار وحصان.. قرر سرقة إحداها قبل وقفة العيد الكبير التى ستحل بعد ثلاثة أيام.. ذبحها بالفعل ومضى يوزع لحمها على عمال المزرعة وخفراء العمدة والفقراء فى البلد مجانًا.

كان شوقى فراش المدرسة مثله فى غيظ من أنس، الذى تكررت معاملته لناظر المدرسة أمامه بغلظة وتعالٍ .. لذلك وافق على أن يتم ذبح البقرة لديه..

قبل منتصف ليلة العيد فوجئت بيوت معينة بطرقات ولفات مجهولة، ثم لا أحد.. أحيانًا كانت تلقى عليهم من النافذة، ولم يعرف أحد من الذى أرسلها.. وكان العيد قد أوشكت شمسه على البزوغ وأكثر البيوت بلا لحم.

أبلغ العمدة المركز مع ضحى أول أيام العيد عندما ثار أخوه وهدد إذا لم تعد البقرة، فسوف يكون نهار البلد أسود، وعيدهم ميتمًا إذا كان سارقها منهم ولم يعترف أو يعيدها.

شك العمدة فى كسبان، دعاه فأنكر، قال له: احْلِفْ .. حَلَف بالمصحف وبالدين والملة ورحمة أبيه والنعمة الشريفة.

شعر أنس بالغيظ عندما اعترف بعض الخفراء بأنهم أفطروا لحمًا.. فاعل خير تركه على أبوابهم، وهكذا أصبح يقينًا أنها سرقت وذبحت، وأن البلد أكلت فى يوم عيدها حرامًا، وجهنم مثواهم بإذن الله....
هكذا قال العمدة.

وقال أنس:
ـ أنا مليش علاقة بالآخرة.. أنا عايز البقرة أو اللى سرقها..

مَيّل خفير على آخر، وقال له:
ـ تصور يا أخى دى ألذ لحمة كَلْتها فى حياتى.

فقال له زميله:
ـ قَصْدَكْ دى أول لحمة تأكلها فى حياتك.
ـ أنا كَلْت كتير يا سيدى.

ـ امتى آخر مرة.

ـ آخر مرة .. آخر مرة.. من ييجى سنتين.

غرقا فى الضحك.. وسرعان ما جاءت شرطة المركز وحققت ولم تصل إلى شيء...

قال رئيس المباحث للعمدة:

ـ كل سنة وأنت طيب يا عمدة.. أنس بك عنده الخير كتير.

دعا العمدة شيخ المسجد، وطلب منه أن يخطب داعيًا من سرق أن يعترف أو يعيدها إذا لم تكن قد ذبحت.

خطب الشيخ فى الناس مستنكرًا أن يأكل المسلمون لحمًا مسروقًا، وأن من سرقه سيتبوأ مقعده من النار يوم القيامة، ولم يذكر شيئًا مما قاله العمدة... لكنه كان يود لو ذاق طعمها.

حاول العمدة مرة ثانية وثالثة مع كسبان كى يعترف، قال له:

ـ بحسبك بَعَـتِّ لى علشان أخذ ضحيتك فى العيد... عيلتنا ما شفتش اللحمة من شهور.

قال العمدة: أيوه صحيح.. من أيام "زاهية"..

قال كسبان على الفور:

ـ لا وإنت الصادق ، من أيام ما خدت هى وأخوها أرضنا.

هب العمدة ساخطًا: أرض إيه يا كسبان.. يا شُضَلى يا للى ما لقيتش أب يربيك.. الأرض .. أبوك بايعها بنفسه لى وقبض فلوسها وشوف وَدَّى فلوسها فين.. الظلم حرام يا بلد ما تراعيش ربنا.

قال له كسبان وهو يمضى عنه :

ـ عندك حق.. الظلم حرام.. البلد يا عينى ظالماك.. بس خليك فاكر.. نهاية الظالم إيه.

دخل طارق ابن العمدة.. قال له كسبان : يرضيك يا افندى أبوك ياخد أرضنا ولا يعوضنا بحاجة.

طارق هزيل الجسد على عكس والده.. ومثل أمه أسمر اللون ضيق العينين.. قال :

ـ العقد شريعة المتعاقدين.

هز كسبان رأسه ومضى.

تذكر أنه كان مع طارق فى السنوات الأولى الابتدائية.. وهو الآن أنهى دراسته ويسعى أبوه جاهدًا ليصبح صحفيًّا حتى يشد من أزره.. ينوى ترشيح نفسه فى المجلس ، ويثبت مكانه فى العمدية وحتى لا يفكر هاشم أبو سديرة أو شعبان حتة فى القفز عليها.

ـ مؤكد ح يبقى زى أبوه نتن.. بس صحفى.

بعد يومين أرسل العمدة من جديد لكسبان ، وطلب منه أن يعمل معه خفيرًا بدل الصَّرْمحة فى الشوراع.. ساعتها سيكون موظفًا رسميًّا فى الدولة ، له مرتب وله احترام وسلطة.

رفض كسبان بشدة ، وقال إنه لا يكون عبدًا لأحد.

جدد العمدة الدعوة بعد تصعيدها :

ـ طب شيخ خفراء.

رد كسبان بسرعة، وبقوة:

- ولا حتى عمدة، قلت لك مستحيل أكون عبد لحد.

زعق فيه العمدة: وهو أنا عبد لحد يا وله .

قال كسبان بثقة:

- مش إنت وبس .. كل اللى زيك، وكل ما تعلى يزيد اللى فوقك فى العدد وفى التحكم.. وتقضى عمرك كله وأنت بتحاول ترضيهم..

- أمال إنت عايز تبقى إيه..مأمور؟

- أنا مش عايز حاجة.. أنا عايز أكون حر.. حر وبس.

- طب رئيس جمهورية.

- ولا الرئيس حر..فيه مليون حاجة شاغلاه.

- إنت مش عايز تعيش حر، إنت عايز تعيش حمار.

- أيوه.

- طب امشى انجر.. جتَك الغم.

تكررت تجربة كسبان مع أنس وغيره من الأغنياء الأفاقين، دون أن يتمكن أحد من القبض عليه متلبسًا، والعمدة فى المقابل لا عمل له إلا إبلاغ الشرطة عن كسبان بوصفه متهربًا من التجنيد، وأن شهادة الميلاد مزورة وغير حقيقية، وأنه تجاوز الواحد والعشرين، إلى أن فوجئ كسبان فى يوم بدعوة للحضور إلى المركز، وعندما ذهب لم يعد إلا بعد خمسة وأربعين يومًا.. فقد تم تجنيده لمدة ثلاث سنوات.

قبل الفجر بساعة بينما الأجساد كلها هامدة ومحطوطة، والصمت ثقيل، وقليل من البرد يدفع الأبدان لاحتضان الأسرة وأسطح الأفران، والتمسك بالنوم اللذيذ والدفء.. فوجئ العمدة بملك الموت يقبض على رقبته ويحاول استخراج روحه.. تولاه الرعب، كان يأمل أن يعيش مدة أطول ويكسب أكثر ويطمئن على أولاده؛ خاصة ولده طارق الذى يشبه رغيفًا نسيه الفران..

تنبه لحظات قليلة، إنه ليس ملك الموت، وإنما كسبان يطالبه بأرضه، وإلا ذبحه الآن، وطبعًا سيضطر لذبحه إذا تصرف العمدة بطيش فزعق أو نادى أو لم يتعهد بالتنفيذ.

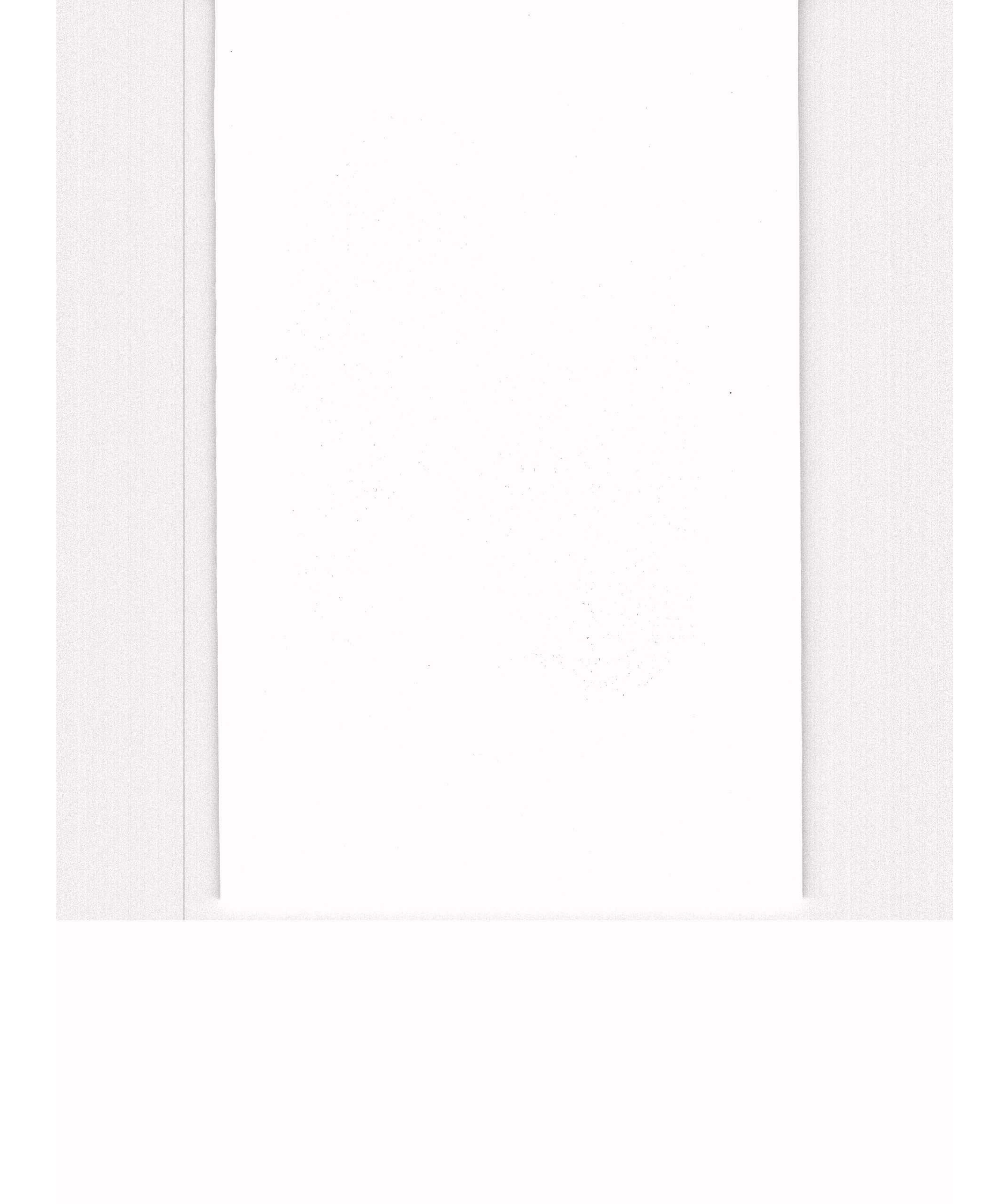
أدرك العمدة أنه محاصر، وأن المسألة ليست سهلة والولد شرس وعنيد ولِمِض.. رضخ لرغبته، ووعده بأنه فى الصباح سيذهب إلى الشهر العقارى، ويعيد إليه نصف الأرض.. وأقسم أن الحاج مختار اقترض منه ثمن الأرض، ومع ذلك ومن أجل خاطر عيون كسبان سيعيد نصفها.

فى الصباح وَفَّى العمدة بنصف وعده، وحرر عقدًا لكسبان بفدان واحد مُقِرًّا أنه باعه له وقبض ثمنه، وأصبح ملكًا لكسبان.. تسلم الأرض ووضع يد أمه وحمدان عليها وعاد إلى وحدته.

لم تغب سيرته تمامًا عن البلد ولا عن الناس، فقد ظهرت موهبة الشعر العامى والزجل لدى شاب من أبناء القرية اسمه رضوان الروبى، لفتت نظره مغامرات كسبان فكتب عنه قصيدة أعجبت



"أدرك العمدة أنه محاصر، وأن المسألة ليست سهلة"



سامعيه البسطاء، ثم كتب ثانية وثالثة، وأصبحت مادة من مواد السمر، وأمسى الناس جميعًا يطلبونها.

ـ سمعنا يا شاعر قصة الكسبان.

حتى حفظوها خاصة الأطفال.. وانتقلت إلى قرى أخرى.. ولا تزال بعض أبياتها المتواضعة والمكسورة تحتفظ بمقاعدها فى رأسى، خاصة المقدمـة التى يعقبـها وصـف تفصيلى للمغامرات، مضافًا إليها بعض ما لم يقترفه ابن خالى بطل السيرة.

(٨)

الجميلة والخنازير

اضطر إلى ركوب بعض الحيوانات ليريح فى حدائقها نخيله، لاحظ أنه فى بعض الليالى وهو منقوع فى نوم عميق.. كان يستيقظ، وقد اكتشف أن حيواناته تتقافز خارجة منه وتغرقه فى الجنابة ذات الرائحة المميزة.

ألحت أمه أن يتزوج فوافق مرحبًا بالفكرة، راجيًا أن يكون حظه أن يتزوج أجمل فتاة فى البلد.. لقد تخلى عن كل شيء، وزهد فى المال والسلطة والجاه حتى الوظيفة، لكنه قرر ألا تكون شريكة عمره وفراشه وأم أولاده أقل من رائعة الجمال، وليس أجمل فى البلد من سوسن ابنة شيخ الخفراء، الذى يعد رغم منصبه من فئات الشعب.. ومن المتعذر إن لم يكن من المستحيل أن يفكر شخص عادى وأقل من العادى، مثل كسبان فى ابنة أنس عبد الظاهر أو ابنة شوقى سديرة أو ابنة رجب النجار فهؤلاء باشوات كبار، لا يرضون به خادمًا لبناتهن.

سألته أمه بعد أيام:

ـ أنت حاطط عينك على حد؟

ـ أه.. حاطط ...

ـ مين؟

ـ بنت حشاد شيخ الخفراء..

ـ سوسن؟

ـ أيوه..

ـ دى حتة بنت .. براوه عليك يا وله.. بس..

ـ ما فيش بس.. سيبينى اتصرف..

ـ إزاى ح تتصرف..

ـ أجس النبض الأول.

ـ أجسه أنا..

ـ لا .. ح أجسه بطريقتى.

بات يبحث عن طريقة، وخامره إحساس بالندم لأنه تسرع وحمل نفسه المسئولية، الأسهل أن تقوم بها أمه، يمكنها أن تدخل وتخرج كما تشاء ووقت تشاء دار حشاد.. لكنه كان حريصًا ألا تدخل أمه مؤقتا فى حساب النظر إليه.. قرر أن يحاول بلا وجل ولا حسابات، ولتكن النتيجة ما تكون.

مضى يفكر فى البنت الجميلة.. وجهها الفاتن وشعرها وعودها الطويل الرشيق، وعينيها الواسعتين والشفاه والخدود المتوردة، والصدر المعتز بثماره.. الهناء الحقيقى لابد حاصل مع هذه البنت.. المشكلة تكمن فى أنها تدرس وتوشك على امتحان الثانوية العامة.. هذا بالإضافة إلى وضع أبيها، وجمالها الفائق، تعليمها.. عائلة أمها الثرية.. شخصية

أمها المعقدة والشديدة.. الأمر صعب.. صعب جدًا.. أما هو فمجرد مجند لا يتبقى له غير شهور، بلا وظيفة.. ربما يكون هناك وعد من اللواء قائد الفرقة بأن يسعى لتعيينه بالجيش فى وظيفة مدرب لضرب النار، بسبب إجادته الواضحة جدًا بل الممتازة.

قابلها صدفة عائدة من درسها وكان يرتدى زى الجندية.. دخل فى الموضوع مباشرة.. أبدى إعجابه بها وعرض عليها الزواج.. قالت له إن الكلام مع الأهل.. وافقها، ولكنه يطمع فى رأيها.. وافقت بل بدا له أنها مرحبة.

أسرعت إليه نسمة عصارى.. هبت عليه فاردة جناحها إلى الآخر.. عانقته بحنان.. نفذت إلى قلبه وكل أعضائه.. أحس بنشوة غريبة.. البنت الجميلة جدًا قبلت الزواج به.. رائع.. رائع.. كاد يطير .. أبلغ أمه.. فرحت.. حاولت أن تزغرد.. منعها.. لما أوى إلى الفراش راح يفكر فى الحلم الكبير الذى سيغير بلا شك كل حياته.. وسرعان ما هاجمته بلا رحمة فكرة شرسة.. تبادر إلى ذهنه أنها يمكن أن تكون معطوبة.. هل يكون قد قطف وردتها أحد وتركها عريانة الساقين ممزقة الثوب؟ هل زحفت بعض الحشرات فوق ثوبها الجميل؟

مضى فكره المرقط بالقلق يهدد نهاره وليله.. يزرع الشك ويحصده.. أذهلته الصدمة.. هو الذى زرعها ويحاول التنكر لها..

قرر أن يبعد الفكرة ويتخلص منها.. بل ويبعد كل الأفكار.. نزع من رأسه فكرة أن يتقدم إليها، وفكرة أن يشك فيها، وفكرة الزواج ذاتها.. كل الأفكار أزاحها من رأسه بكل ثقة، كان حريصًا على أن تبقى رأسه خالية.. مزاج عنده ورغبة مهيمنة أن يتفرج على غرف عقله فيجدها

نظيفة وفسيحة ومتسعة، يملك القدرة على أن يجرى فى أنحائها كما يشاء، سعيدًا ومتبهجًا، خالى البال، إذا حط رأسه على الوسادة نام وشخر.

عادت تطوف بخياله وتطرق باب فكره.. جسده يرقص فرحًا لمرآها، ويستمتع بالنظر إلى جسدها الريان ولو بالوهم.. لام نفسه على الشك.. أ لأنها وافقت عليه فهى معطوبة؟ .. أهانت نفسه عليه إلى هذه الدرجة حتى يعتبر موافقتها عليه وقبولها به دلالة على أنها فقدت أعز ما لديها وأصبحت أقل منه؟ .. ألا يدرى أن الشباب فى البلد يقدرونه ورجاله أيضًا وأطفاله، ولابد أعجبت به بعض النساء، وبعد أن يتسلم وظيفته العسكرية سيكون صالحًا لأى بنت، فماله يسرف على نفسه حتى ليتهم من يسعون إليه ويرحبون به.

قرر أن يسمح لأمه بجس النبض، فذهبت متحمسة وعادت فاقدة النطق أو تكاد، فقد أكلتها زوجة شيخ الخفراء وشالتها وحطتها، وقالت لها:
ـ عن إذنك أنا تعبانة وداخلة أنام.

أخيرًا أنبأته أمه بما جرى، وأنهم لم يرفضوا، بل ثاروا.. كيف يسمح لنفسه أو تسمح هى لنفسها بطلب يد ست البنات؟ .. مؤكد ربنا ستر إنهم لم يقولوا لها:
ـ اتفضلى بره يا لَمَّامة الجلة.

لأول مرة يعرف الأسى والحزن.. لأول مرة يصطدم بالطباع البشرية، بعد أن نضج وعلم كثيرًا عن الحياة، وإن كان فى عز

عواصفها يحافظ على نقاء روحه، والفصل بينها وبين أفاعيل البشر، ولا يزال كما هو.. لم يتغير المعدن، لكن الموقف يتضمن تقييمًا له ولعائلته، كشف عن هوانه بين الناس مع اعترافه بأنهم درجات ومستويات..

فضفض لبعض الأصدقاء.. أحدهم ألمح إليه من بعيد وبمنتهى الأدب أنه أخطأ؛ لأن الزواج يبدأ ويقوم أساسًا على التكافؤ، وأكثرهم استاء لتصرف شيخ الخفراء، وكان قد قابله كسبان وشرع فى الحديث معه عن ابنته، قال له:

ـ ما تكملش يا كسبان.. الموضوع اتقفل.

علم رضوان الروبى فمضى يواصل كتابته للشعر عن كسبان، ويروى مغامراته فى كل مكان.. التقى كسبان بسوسن.. ابتسمت ونكست رأسها حياء.. طيبت خاطره.. أخذ يحدق فى الشفاه الجميلة الدسمة، والتى بيدها أن تفتح له بوابات الأمل أو تصب فوق رأسه برميل قطران..

بكل نعومة ورقة، قالت:

ـ ما تزعلش يا كسبان... إدى أهلى فرصة.. ما تستعجلش وأنا واثقة لما وضعك يتحسن ح يوافقوا، لأنى ساعتها ح أقول رأيى .. لكن أنا مشغولة بالدراسة.

ـ أنا بس عايز أعرف رأيك.

عاد يحدق فى الشفاه مطالبًا إياها بجرعة حنان أكبر..

ـ أنت ما فيكش حاجة تتعيب، وكل بنت ترحب بك.. لكن وضعك الوظيفى والمالى لازم يتحسن .. مش أنا برضه عندى حق.

ـ عندك حق.. أنا بسأل عن شعورك.

ـ هوه الجواز بس شعور؟

ـ بالنسبة لى.. أيوه.

ـ يا سيدى شعورى ناحيتك قايم على التقدير، لأنك مكافح ومؤدب.

ماذا يقول ردًا على كلامها وإن كان لم يرضه تمامًا.. يريد أن يغرق فى بحيرة رضاها.

ـ أنا معجب بيكى يا سوسن..

ـ وأنا كمان يا كسبان..

ـ يعنى إنت..

ـ معاك.. اطمن..بس لازم تبقى حاجة..

طريقة كلامها جننته، سلم عليها، وأبقى حمامة يدها فى كفه.. يستطعم دفئها وحنانها ويبلغها رسالة قلبه وعميق مودته.. يسلمها وعده واستعداده أن يعمل كل ما تطلبه ليكون شخصًا آخر جدير بالاحتفاظ بهذه اليد الطرية.. حاولت سحبها عدة مرات، و لكنها لاحظت أن الأمر صعب..

أحنت رأسها وابتسمت.

ـ مع السلامة يا كسبان..

بدا كمن لم يكن واعيًا لحالته..

ـ أيوه.. مع السلامة يا سوسن..

لكنه نسى أن يدها لا زالت فى يده .. قالت له :

ـ عايزاك فوق يا كسبان.. فوق..

ـ طبعًا.. طبعًا..

ـ طب سيب إيدى عشان امشى..

ـ آه..آه.. اتفضلى ..مع السلامة..

الآن فقط تنبه إلى أن قلبه يعرف كيف يدق .. ويرتجل داخل صدره.. وأنه لا يستطيع السير بالاعتدال المطلوب أو بالاندفاع المعتاد.. أدرك بشكل ضبابى، أنه لم يكن يعرف شيئًا عن النساء.. كلها حكايات.. كلام شباب مع ليالى السهر.. الأغانى.. عدة أفلام رآها فى السينما ولكن يده لم تستقبل أبدًا مثل الإشعاع الذى تلقته من يد سوسن.. ولم يُجَرِّب أن يتحول لمس اليد إلى مشاعر ونبض لذيذ فى القلب.

ـ يمكن هوه ده الحب.

كان المشروع فى بدايته مجرد رغبته فى الزواج.. تحول بعد معرفته بسوسن إلى حب البنات بصرف النظر عن الزواج.. كان إعجابه بجمال سوسن فقط،أصبح بعد الحوار معها إعجابًا بعقلها وشخصيتها وهدوءها الجميل،بدت أجمل كثيرًا جدًّا مما كانت يوم عزم على خطبتها...

فجأة قال :

ـ لا يمكن حَسيبها ولو طال الزمن.

أحس فجأة أنه لا يعرف شيئًا عن أى شيء.. وأن الحب بوابة المعرفة، وإن كل شيء يمر به مرور الكرام، وهو نفسه يعيش فى الحياة

كمالة عدد.. شيئًا هامشيًّا، لا يتعمق ما يجرى ولا يجيد الملاحظة.. يعيش فى الحياة من الخارج.. لا من الداخل.. النفوس تحتاج إلى خبرة وتأمل.

دون أن يدرى وجد نفسه يفكر فى الزهور، وطلب من كامل الروبى شقيق الشاعر أن يحضر له بعض النباتات ليزين بها داره، وفرش على حيطانها البايشة على الجنب اليمين لبلابة، وعلى الجنب الشمال ياسمينة، ورسم على الجدار وحول الباب قلبًا كبيرًا، لا يكون دخول الدار إلا من خلال القلب.. واتفق مع نفسه أن يخفى حبه لسوسن فى قلبه.. لا يكشف ولا يبوح.. جوهرة جميلة مخبوءة فى محارتها، لا تخرج إلا حين يحين الأوان، وتأتى اللحظة المناسبة، لكن العزم أكيد ألا يرتبط بغيرها، وتمنى على الله ألا يدفعه أحد لعمل سخيف يغير صورته عندها..

هام وراء فكرة الحب.. فكرة أن يهيم رجل بامرأة.. فكرة أن يحب كل الرجال كل النساء.. وحاول أن يتخيل شكل العالم.. أراد مخلصًا أن يعيش الجميع حالته .. حالة الحب، كيف أنه أصبح طائرًا يحلق، وأنه أصبح هادئًا وطيبًا ولا يسمح لذبابة أن تلمس أذن كلب أو ذيل جاموسة.. تصور أن الحب شعور غريب وقوى جدًّا، ويمكن أن يغير الدنيا تمامًا وينهى حالة اللخبطة والفوضى التى يراها فى كل مكان...

تساءل كم حالة حب فى الكفر.. حاول أن يتخيل أى الرجال فى البلد يمكن أن يكون فى حالة حب.. حتى الشباب.. لم يعثر فيهم على شاب يبدو عليه أنه يحب.. وقرر أن الناس يمكن أن تدارى مشاعرها .. أما هو فلا يستطيع..

انقضت عليه الأيام وهو يترقب الوظيفة العسكرية خاصة مع قرب نهاية المدة، إلى أن جاء يوم سمع قبل غروبه طرقًا على الباب.. شفيق أحد الأصدقاء القدامى، قادم لزيارته فى داره لينقل إليه رغبة رجب بك النجار فى رؤيته فى أقرب فرصة.. شفيق يتولى الإشراف على مخازن وحسابات الثرى الكبير، وعده أن يذهب إليه عصر اليوم التالى.

على باب المزرعة التى لا نهاية لها.. سيارة حمراء فارهة تبرق تحت ضوء الشمس، وتشعل المكان بروح الثقة وقوة الامتلاك.. بعد قليل يلتقى من لا يملك شيئًا، بمن يملك كل شيء.. كيف يكون الحوار؟!

كان رجب بك إلى جوارها يتحدث مع بعض العمال.. رَحَّبَ بكسبان وردد بعض العبارات التى بلغته عنه، تحدث عن امتداح الناس له، وتأكيدهم أنه مخلص وأمين، ثم عرض عليه رغبته فى أن يسلمه خدمة الخنازير طبعًا تحت إشراف المهندس إحسان.

كان قد سمع فى حديث عابر أن رجب بك يربى الخنازير، لكنه كان يستبعد حدوث ذلك، فما علاقة المسلمين بها، وهى لاشك تحظى بكراهيتهم العميقة، لم يهتم باستكمال المعلومات عن حقيقة المزرعة؛ فالأمر برمته سواء كانت هناك خنازير أم لم تكن .. لا يعنيه.

إنه الآن لا يسمع من أى شخص، بل من صاحب الشأن وهو لا يسمع معلومات فقط، بل يكلف بعمل مع هذه الخنازير النجسة، التى لها ولع جنونى بكل ما هو قذر، فضلاً عن شكلها القمئ وحركاتها الغبية، وكان قد رآها فى أحد الأفلام وسمع بأحوالها أكثر من مرة...

قال رجب :

ـ معلوماتى إنك خارج من الجيش على آخر الشهر..معظم اللى أعرفهم رشحوك للعمل معايا.. وإنت ما عندكش شغل، لذلك أعرض عليك تتولى أهم شغلانة عندى.. خدمة الخنازير هى أهم وأخطر عمل فى المزرعة.

أضاف إحسان :

ـ فى مصر كلها أربع مزارع، ورجب بك قرر أن تكون مزرعته هى الأولى فى مصر، علشان كده اختارك.. إنت أنسب واحد لها.. ما تخافش أنت مش لوحدك.. أنا وياك.. بس أنت المسئول عن كل شيء والكل فى الكل.

تدخل رجب :

ـ بس خللى بالك.. مش ح تنجح فى عملك إلا إذا حبيت الخنازير.. لأ.. مش تحبها.. تموت فيها.. لازم تكون عندك أهم من أهلك وتنام تحلم بيها، وتقوم تفكر فيها. . أنا مش عايز المهندس إحسان يكلمنى عن خدمتك ليها.. أنا عايزها هى اللى تحكى لى عن إخلاصك فى خدمة..

أكمل إحسان بسرعة :

ـ حبايبنا الخنازير..

ظل كسبان صامتًا لا يعرف ماذا يقول وكيف يتصرف، يحاول أن يعرف من الذى دلهم على طريقه، استبعد أن يكون شفيق.. بداخله

بركان يوشك على الانفجار.. بذل جهدًا لمحاولة تخليص نفسه من قبضة الغضب، لكن الأمر فيما يبدو كان متعذرًا، وزاد الأمر سوءًا حضور طيف سوسن، تقول له ساخرة:

ـ مبروك الشغل يا كسبان بك...

ـ ما لك ما بتردش ليه؟

سأله رجب عدة مرات دون أن ينتبه إلا أخيرًا..

ـ أرد أقول إيه؟

ـ تقول رأيك..

ـ فى إيه؟

ـ فى إيه؟.. فى أنك تتولى خدمة الخنازير ونظافتها وأكلها وشربها وسلامتها.. وعلاجها لا قدر الله، تكون تحت أمرها فى كل شيء ليل ونهار.. عينيك على عينيها، وفى ودانها وأظافرها وبطنها والأرض اللى بتمشى عليها.

سحب كسبان نفسًا طويلاً، وقال:

ـ الخنازير؟!

ـ أيوه يا كسبان .. الخنازير أجمل حيوانات الأرض..

كتم البركان الذى بداخله وحاول أن ينهى المقابلة، وينفس قليلاً عن غضبه، وفى الوقت نفسه يسب الدعوة والخنازير والعمل.. قال:

ـ أنا أبقى خنزير لو اشتغلت معاك.

ارتطمت الكلمات ببدن رجب بك، فتراجع بنصفه الأعلى قليلاً.. تلفت حواليه، وكأنه يسأل من حوله: هل سمعوا ما سمعه؟ هل يمكن أن يوجد مخلوق على وجه الأرض يمكن أن يرد عليه بهذا الشكل؟!

لحظة ثم اندفع يزعق فى وجه كسبان:

ـ أنت يا جربوع تطول تبقى خنزير.. غور بسرعة من وشى يا متخلف.

لما لم يتحرك كسبان وظل ينظر شذرًا إلى رجب، وهو يفكر فى البصق عليه...

صرخ رجب:

ـ اطردوا الكلب الجربان ده بره.. أنا كنت ح اغلط غلطة كبيرة..ده كمان ممكن يجيب المرض للخنازير.. أخرجوا الحيوان ده بره.

انتقل كسبان بنظراته المشتعلة غضبًا إلى ثلاثة رجال يتقدمون نحوه، وقال:

ـ اللى حا يقرب منى ح اقطم رقبته.

استدار خارجًا، وهم يلاحقونه ويتلصقون به لاستفزازه والاستعداد لتحطيمه فى أى لحظة.. صفقوا البوابة الحديدية وراءه.

وقف كسبان بالخارج حائرًا.. ماذا يفعل فيما لحق به من إهانة..ماذا يفعل.. ماذا يفعل؟ إلى أن رأى السيارة الجميلة.. حاول تحريكها.. لم تتحرك ولا مليمتر واحد.. شعر بمزيد من الغيظ.. سيطر عليه إحساس بالرغبة فى الانتقام من هذا الرجل الصفيق، الذى سبه وازدراه.

فكر أن يحطم زجاجها بحجر.. شعر أن ذلك غير كاف بالمرة... راودته فكرة شريرة وصعبة.. حشد قوة ذراعيه.. حاول رفع السيارة من الخلف فاستجابت، رفعها أكثر وأكثر.. مضى يرفعها وهو يبذل جهدًا لم يبذله فى حياته..كان مصرًّا إصرارًا وحشيًّا.. إصرار الراغب فى الحياة والمقاوم

للموت، إلى أن تساوت عجلات مؤخرتها مع صدره، فرفعها بامتداد ذراعيه، وظل يرفعها حتى قلبها على مقدمتها فى الترعة.

نفض يديه واتخذ طريق العودة، بعد أن تنفس بعمق وشمله شعور بالرضا.. لم يرض أن يكون مدينًا لأحد ولو برصيد فى الكرامة.

أسرع رجال المزرعة يفتحون البوابة ليتفقدوا الحال بعد سماعهم صوت القرقعة، وعندما وقعت عيونهم على مؤخرة السيارة الحمراء المزروعة مقدمتها فى قاع الترعة.. وقفوا مبهوتين:

كانت معهم مبهوتة سيدة أنيقة جدًّا فى سيارة بيضاء مكشوفة.. تابعت المشهد منذ بدأ كسبان رفع السيارة الجميلة..

وقفت تنظر عبر نظارتها العسلية الغامقة إلى هذا الرجل.. لم تسمع ولم تر من قبل ما رأته بعينيها.. رجل بسيط وعادى، يحمل سيارة ثقيلة جدًّا، ثم يلقيها فى الترعة.. وفى بساطة ينفض يديه ويمضى.. ظلت تتابعه حتى اختفى عن العيون.. ولم تتحرك إلا بعد أن أعادت على ذاكرتها المشهد الطازج كله من البداية، حتى اختفى.. لم تحفل بحالة رجال المزرعة الذين ظلوا غرقى دهشتهم المستبدة.

مضت صاحبة السيارة البيضاء وقد استشعرت غرابة هذا الكائن وقدراته الخارقة، فأطلقت خصلات شعرها المعقود.. هزت رأسها عدة مرات فانسدل الشعر الكثيف على الأكتاف.. تمشت السيارة فى نعومة لتدخل بوابة الفيلا المجاورة؛ حيث تعيش ابنة خالتها زوجة الدكتور يوسف النجار شقيق رجب النجار.

حكت لنهلة ما رأته ووصفت لها الشخص فعرفته نهلة، سردت عليها نتفًا من أخباره وأحواله وبعضًا مما تسمعه عن عجائب أفعاله.. زاد شوق الضيفة، وتعاظمت لهفتها لأن تراه عن قرب، وهى تتذكر جيدًا أنها لم تلمح فى مظهره ولا فى حجمه ما يثير أو ما يمكن أن يكون المصدر لما حكته..

دخلت نهلة على زوجها فى مكتبه.. حدثته بما كان من أمر كسبان، الذى رمى سيارة رجب فى الترعة.. هز رأسه وهو عاكف على مكتبه، ويده تعمل فى أوراقه على نور المصباح، ثم سحب البايب من فمه، وقال:

ـ أبدان تتسلط على أبدان.

علت وجهه بسمة خفيفة لا تشير إلى معنى محدد، لكن نهلة أدركت عدم اهتمامه اتساقًا مع عدم رضاه عن مجالات عمل أخيه وطريقته.

عاد الدكتور لأوراقه وعادت نهلة إلى بنت خالتها "جنان" الأرملة، التى تعيش وحيدة فى فيلا ومزرعة كبيرة، بين بلتان والعمار على الرياح التوفيقى.

شرعا من جديد يتحدثان فى موضوع قديم هو إصرار "جنان" على رفض عرض رجب النجار الذى حاول عدة مرات طلب يدها، وفى موضوع قديم جدًا، لكنه جديد جدًا هو رغبة نهلة فى الإنجاب.. رغبة لا تفارق أعماقها بليل أو نهار، فى حين أن المسألة لا تعنى الدكتور يوسف الأستاذ الجامعى والمؤرخ الكبير المشغول بأبحاثه.. تخرجها "جنان" من حالتها التعسة.. تذكرها بكلام يوسف:

- معظم الناس بلهاء.. مجانين.. لو كان بيدى لما أقدمت على الإنجاب إلا إذا تأكد لى أن ابنى سيكون نافعًا وعظيمًا.. لكن الإنجاب لمجرد الإنجاب كالحيوانات والحشرات.. حماقة، وغباء وبوابة كبيرة للمشكلات.

تمصمص نهلة شفتيها وتبتسم.. ثم تكتشف فجأة أنها تود لو ذاقت "جنان" الجيلاتى الذى صنعته بيديها..تكمل "جنان" ما كانش حد غِلِبْ يا دكتور.. الخلفة زى الجواز بطيخة.. يا حمرا يا قرعة.. الخلفة مش تحضير مواد فى معمل.. مقدمات تفضى لنتائج ١٠٠٪.. الخلل وارد..

تقول نهلة:

- الخلفة مطلوبة لذاتها مش لنتائجها.. المهم تشوفى نونو وتربيه وتلاعبيه وتحضنيه.. تغذى صدرك بيه.. وتملى عينك منه.. يا سلام.. مفيش حاجة بعيدة عليك يا رب.. أنا مش ح أيأس.

وتعود "جنان" لاستعادة مشهد السيارة الحمراء الفاخرة، وهى ترتفع بذراعى الرجل ثم تنقلب.. تتذكر أنها كانت تود لو تقف طويلاً تتأمل السيارة، بل وكانت الكاميرا معها.. لكنها راعت مشاعر رجب إذا خرج ووقعت عيناه عليها، وهى تشهد ربما ببعض الاستمتاع صفعة يوجهها إليه فلاح بسيط.

(٩)

فكيــهة

فى الطريق الغارقة فى الظلمة بين السكة الحديد وأول مبانى الكفر.. لم يكن ثمة صوت إلا نقيق الضفادع وصفير الصراصير.. الرشاح على شمال القادم من المحطة وعلى يمينه ترعة صغيرة تروى الغيطان والجناين المطلة عليها.. الإسفلت الجديد أفسح الطريق قليلاً، وأتاح الفرصة للعربات؛ كى تنطلق كما يشاء أصحابها المجانين.

كان المدق قديماً يكبح جماحهم، وكانت الأرض خشنة، تزداد خشونتها أحياناً لدرجة رجرجة السيارات وإزعاج العجلات بالارتفاع والانخفاض فوق الزلط وصغير الحجر.

على هذا الطريق.. وفى هذه الليلة التى فيها حطت العتمة على كل شيء، ولفت الدنيا بغلالات سوداء كثيفة، كان كسبان عائداً إلى القرية سائراً على قدميه، يحمل حقيبة من القماش بها كل ما كان له فى الجيش.. لقد انتهت مدة تجنيده على خير، وكل زملائه الجنود والضباط أحبوه وكرهوا جدًّا مفارقته، ولم تفلح محاولة استبقائه مدرباً لضرب

النار، فلم يتحمس رئيس أركان حرب الفرقة.. تساءل جنود وضباط الكتيبة: كيف لا يتحمس لرجل موهوب كل تقاريره امتياز!

الآن يعود كسبان إلى القرية ليبدأ من جديد حيث الأنقاض والفراغ وقلة الحيلة..يبدأ وظهره للعراء، تجوس قدماه فى خلاء من وراءه خلاء ومن أمامه خلاء.. النفس كالطريق معتمة، والرأس كالطريق خالية وصامتة، لا يهيمن على الآفاق إلا صيحات الحشرات المختلفة كأنها تشكو لخالقها ما تعاني.. لقد تخلى عن الفدان الذى اقتنصه بعد عناء من العمدة لأخيه حمدان الذى ينفق على كوم لحم؟ وعزم على ألا يسترده منه مهما كانت الظروف.. فماذا عليه أن يفعل؟

كان يسأل فقط، كما تعود الناس أن يسألوا فى فشل حالته.. هو لا يشغل باله كثيراً بمثل هذه الظروف؛ لأنه يثق جدًّا فى صاحب الخيمة الزرقاء.

الشعور المسيطر عليه أنه يمضى إلى حيث ينتظره الفقر والجوع ومسئولية والدته، وفى جيبه بضع عشرات من الجنيهات.. كل ذلك ليس إلا صفراً كبيراً يراه منذ سنوات، ويعرف جيداً أنه يكبر ويكبر.. لكن الصفر والخواء خير من الخنازير وأصحابها.

نور شاحب يظهر من خلفه، يقوى بالتدريج وتبلغه دمدمة موتور سيارة مسرعة، يتجه بقدميه إلى أقصى اليمين ليفسح الطريق تماماً للسيارة..

تمرق السيارة وقد مسته مسًّا هيناً، لو مالت عليه سنتيمترات قليلة لقتلته، لكنه كان بعيداً إلى درجة أنه كان على وشك الوقوع فى

الترعة.. عرف أنها سيارة طارق ابن العمدة.. سيارة مميزة بارتفاعها وقربها من شكل الجيب:

ـ المجنون ابن المجنون كان ح يدهسنى..

سرعان ما سمع صوت ارتطام عال، وشيء كالشوال تضربه السيارة المندفعة فيرتفع ثم يسقط، يواصل طارق انطلاقه حتى يختفى فى ثوانٍ عن عينى كسبان الذى يغذى السير نحو الشوال المضروب.. لا يجد شيئا على الطريق ولا فى الترعة.. يظن أنه سقط فى الرَّشَّاح، فينكر هذا على الفور، ويؤكد أنه كان إلى اليمين.. يقفز الترعة.. يحاول التحديق فى الغيط المجاور، وعلى بعد نحو عشرة أمتار يجد ال...

يجد رجلاً ملقى على وجهه.. يحاول تحريكه.. يشفق عليه، لكنه يجتهد برفق حتى يعدله.. إنه سليم البكرى.. أطيب رجال البلد.. حاول أن يفيقه أو يسعفه.. لم يكن ثمة نبض أو أى أمل فى حركة أو إحساس.. الرجل جثة هامدة دون نفس أو رمشة عين.. أسْرَع كسبان يحفن الماء من الترعة ويصب على وجهه.. فوجئ بحركة متوترة وخافتة ترتسم على وجهه.. فتح بصعوبة عينيه.. حدق طويلاً فى وجه كسبان الذى قال:

ـ أنا كسبان يا سليم..مين اللى ضربك.

قال بوهن شديد.. شديد:

ـ الحمد لله.. فكيهة يا كسبان.. عايزك تتجوز بنتى فكيهة.. ح تبقى وش السعد عليك.

قال له كسبان:

ـ اطمن.. عينى ليك وليها.. بس قوللى مين للى ضربك.

كان يتنفس بصعوبة وينطق بالكاد حروفاً ممزقة: أمانة عليك تتجوز بنتى وتسترها .. وش السعد عليك يا كسـ.....

تلفت كسبان حواليه يبحث عمن يعاونه.. لم يجد من يحضر حتى للشهادة.. فكر أن يحمله على ظهره ويعود به إلى بيته، تذكر أنه ليس من الصواب نقله.. أسرع إلى البلد يطرق أبوابها ويبلغ ناسها أن طارق ابن العمدة دهس سليم وهو الآن عند الزاوية، جنب طلمبة عبد القوى فى طريق المحطة.

اندفع ناحية العمدة يبلغه بالخبر، وبأنه رأى بعينيه "طارق" يضرب "سليم" ويقتله.. أيقظ حمدى سائق الأجرة وأنبأه بما جرى.. طلب إليه الإسراع معه إلى المركز للتبليغ.. خرجت القرية كلها إلى سليم البكرى.. تجمعت حوله إلى أن جاءت الشرطة لتعاين الحادث.. لم يكن هناك شاهد غير كسبان، الذى أكد أنه تحسس سيارة طارق عندما ذهب لإبلاغ العمدة.. كان غطاء المحرك ساخناً جدًّا، وطلب من العمدة أن يسلمه بنفسه..

سألت الشرطة العمدة عن ولده، فقال إنه صحفى فى القاهرة ولم يره منذ أسبوع، لولا أن أسرع كمال ابن حسين الروبى قائلاً:

- أنا شفت طارق من ساعة وهو داخل دوار العمدة ونزل بسرعة يجرى من العربية.

رفع كسبان صوته وصاح بقوة.

- إيه رأيكم يا أهل البلد؟

ردوا عليه بسرعة كأنهم مدربون أو متفقون وفى نفس واحد..

ـ لازم البوليس يجيب القاتل من تحت الأرض.

وصل الطبيب الشرعى، وقرر أن الميت خرجت منه الروح قبل ساعتين على الأكثر، وأن سبب الوفاة هبوط مفاجئ فى القلب نتج عن اصطدام جسم صلب كبير بالظهر والجنب الأيسر، وهناك كسور واضحة فى الضلوع، أسرع الضابط ومعاونوه إلى بيت العمدة.. لم يجدوا "طارق" طبعاً.. حمل الناس ميتهم إلى داره.. ظل عدد كبير منهم خارج الدار إلى أذان الفجر.

مع ظهر اليوم الجديد صلوا عليه، وطلب كسبان من أمه وأختيه ألا يترك فكيهة ابنة سليم البكرى ونقل إليهن وصيته، انزعجت أمه ورقية.. قال لهن:

ـ لو كانت أسوأ بنت فى الدنيا ح تجوزها..سليم وصَّانى وأنا وعدت.. بس ربنا يرحمه ويجعل مثواه الجنة.

قالت أمه وهى تهز رأسها:

ـ الله يرحمه.. كان أطيب واحد فى البلد.. بس يا بنى.. فكيهة..شكلها يعنى.

ـ أرجوك يا أمى .. الموضوع انتهى.. بقت على ذمتى من لحظة ما نطق.

سليم لديه ولد وبنت.. الولد لا يعرف رأسه من رجليه.. يعتبر خيبان، لا أكمل تعليما ولا يقبل على عمل، ولا يساعد فى بيت أو غيط.. يمشى بين الناس بصورة عشوائية.. لا خطة ولا مسئولية ولا تفكير.. تجاوز العشرين ولا قيمة له.. لا لنفسه ولا لأهله..حط سليم صوابعه العشرة فى الشق منه.. هو لا يظهر أمامه إلا كى يطلب نقوداً

لزوم الصَّرمحة والسجائر، ومنافسات الكوتشينة والدومينو.. والجرى فى البلاد ومصادقة المتشردين.

بعد عدة أيام صارح كسبان بكرى ابن سليم بما قاله أبوه...

قال بكري:

- بشرط..

- تفضل..

- تتصرف فى شهادتك ضد ابن العمدة.

- أسحبها يعني؟

- يعنى..

- وتتنازل عن دم أبوك.

- هوه تار!!

- أيوه تار..

- يعنى كان قاصد..

أفاق كسبان فجأة وحدق فى محدثه.. ثم قال:

- إدوك كام..

- وإنت مالك..

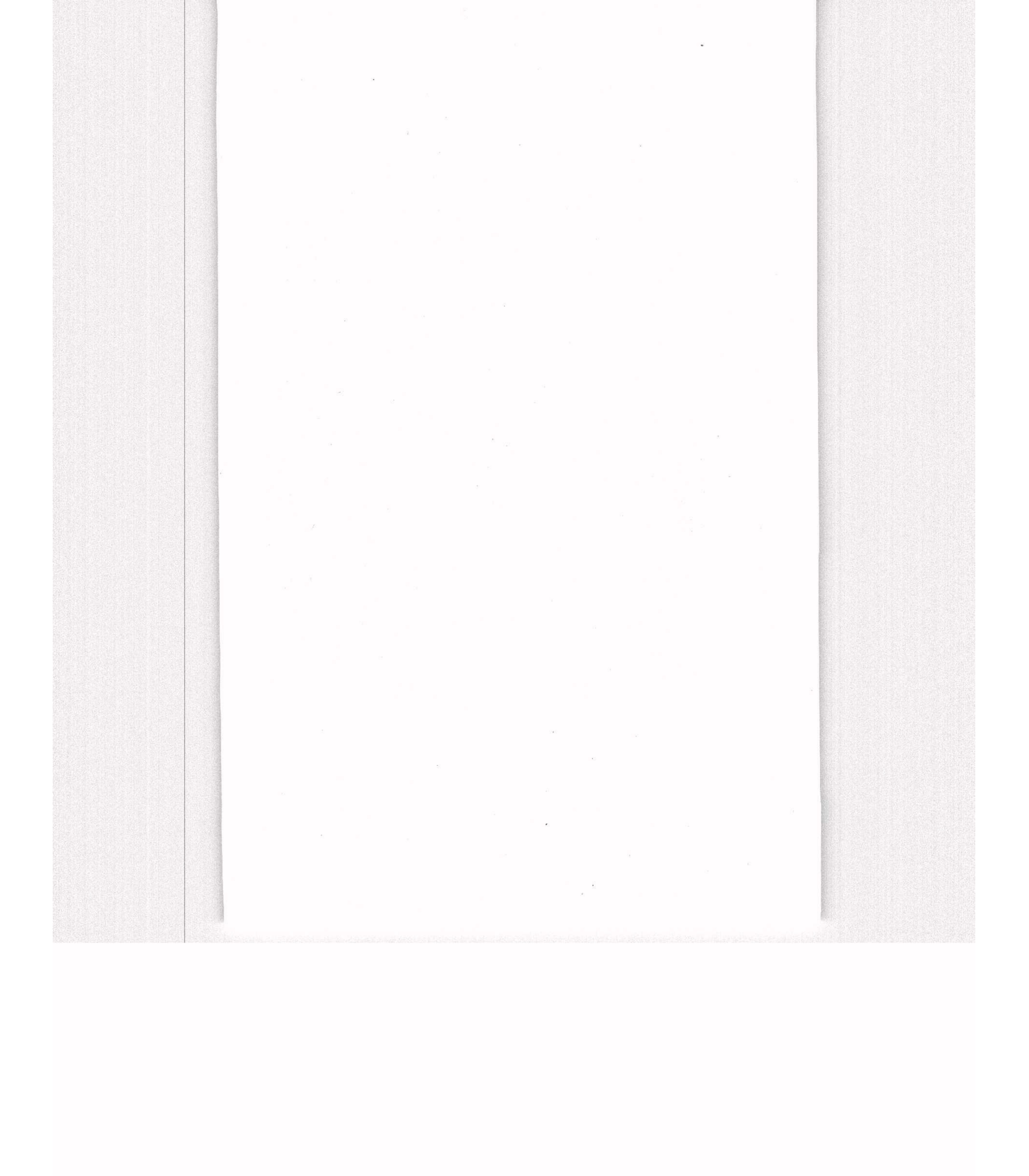
- أخد فكرة .. جايز حد يقتل أمى، أحسب الحسبة وأحدد المطلوب.

- أمك!

وضحك مستهزئاً.



".. لو كانت أسوأ بنت فى الدنيا ح تجوزها.."



خرج كسبان غاضباً لا يدرى ماذا يفعل؟ هل يضرب هذا الحمار.. لأجل والده.. لن يفعل، إذاً ماذا سيفعل لابنته ؟! لن يتخلى عنها أبداً مهما جرى.. يبدو أن الرجل كان يعرف أن ابنته سيضيعها آخوها.. بعث أمه للحديث معها مع التأكيد على أنها وصية الأب.. قبلت البنت، نقلت إليها موقف أخيها.. قالت:

ـ بعد الأربعين ربنا يقدم اللى فيه الخير.

أرسل كسبان خطابا إلى مدير الأمن، يخبره بالحادث ومحاولة العمدة التستر على ولده، وشراء ابن المقتول، اختفى القاتل والشرطة لا تهتم، وأرسل خطابا إلى وزير الداخلية وصوراً منه للصحف، وسرعان ما تم القبض على "طارق" ابن العمدة فى شقة تمارس فيها الجنسية المثلية فى آخر دور بعمارة فى شارع الفجالة، كانت الشرطة قد بحثت عن السيارة "النيفا" الخضراء واستخرجت رقمها من سجلاتها، بعد أن أنكر العمدة معرفة الرقم.. تبين للنيابة أن "طارق" ليس صحفيًّا وإنما يُوهم أباه بذلك وكان مولعًا بممارسة المثلية التى انسجمت مع روحه وجسده ووجد فيها مجده الحقيقى ومستقبله.. ظل تساؤله بعد القبض عليه عن إمكانية ممارسة هوايته فى السجن. . خامره شعور بالتفاؤل.

تزوج كسبان من فكيهة وانتقلت إلى بيته، تفاهمت جدًّا مع أمه.. تحسنت حال المنزل بالنظافة وتربية الدواجن والطلاء؛ خاصة بعد أن توقفت الأم عن لم الجلة، منذ تقدم كسبان لأبنة شيخ الخفراء.

رغم زواجه وعودته إلى حياته الأولى وأعماله المؤقتة عند الآخرين، لم يتوقف تفكيره فى سوسن الجميلة.. كانت فكيهة عادية

الجمال.. لكنها خفيفة الحركة.. نشيطة وماهرة ومدبرة.. تمتلئ بالحيوية وخفة الدم وسماحة القلب.. مضيافة واجتماعية.. غيرت شكل البيت تماماً.. لكنها لم تدخل قلب كسبان.. ظلت على الشاطئ فى انتظار أن يبعث البحر بريح أو موجة تقلها إلى عمق الشعور..

أصر حمدان على أن يسلم لكسبان نصف فدان، يفلحه بنفسه ويطعم منه أمه وزوجته، وما قد يرزقه الله به من أولاد.. ورأى كسبان عرض الموضوع على كامل ورمضان فوافقا على القسمة بين الاثنين، وتنازلا عن كل حق لهما وكذلك فعلت البنتان.

(١٠)

على فراش المرض

نام على سريره عدة ليالٍ متتالية.. أخيراً ومرغماً ركب السرير .. كسبان يتمدد على فراش المرض، وكل من يزوره يحمل معه فى ذاكرته تاريخاً لا ينسى ومواقف محفورة فى الرأس والقلب.

إنه الآن يعانى من كرشة نفس، والكحة تشيل فيه وتحط بعد أن هاجمته بلا سبب، ولعلها كانت تتسلل إلى صدره مع خروجه العشوائى المبكر أحياناً من الموضع الدافئ ليواجه بلا حماية لفحات البرد وصفعاته خاصة فى الشتاء، وربما كانت الكحة – كما قالت زوجته – كحة سجائر، وإن كان كسبان ليس مدخناً كبيراً.

المرض الصدرى لا يأتى فجأة حتى لو بدا كذلك، ولا أحد يعرف على وجه التحديد إذا كانت مجرد كحة أو نزلة شعبية أو لا قدر الله سل أو درن. المشكلة إنه لا يعترف بالأطباء ولا يتعامل معهم البتة، كما لا يعترف بالعمد والمسئولين عموماً، ويرى أن جميع من يسمون بالقيادات والرؤساء وضعهم الشعب لخدمته، لكنهم لم يفعلوا شيئاً أبدا إلا أن يتحكموا فيه ويتفننوا فى هذا التحكم.

على الأكثر فى مجال الصحة، يمكن أن يستجيب رجلنا لبعض أشكال العلاج الشعبى مثل شرب السوائل الساخنة، ومنها قشر الرمان

أو الزنجبيل واليانسون محلاة بعسل النحل.. غير هذا مرفوض .. مرفوض.

كل من عرف أن كسبان مريض، يكون رده الوحيد هو:

ـ يا راجل.. قُلْ كلام غير ده.

كسبان فى رأيهم ضد العطب والكسر.. لذلك يتناقلون الأخبار فى دهشة، وليس فى أسف أو حزن، كأن ما جرى هو من قبيل كذبة إبريل أو الفَشْر.. كأن تقول أن مصرياً هبط بحمارته على سطح القمر، أو أن العمدة الذى يركب على نفس البلد من سنة ١٩٨٣ قرر أن يستقيل ويتبرع بجلده التخين لمصانع الشنط والأحذية، أو إن أمريكا التى تموت فى الصهاينة قررت أن تحملهم بعيداً عن فلسطين، وتسكنهم فى إحدى ولاياتها والعالم كله يرتاح.. والدنيا كلها ترقص فى الشوارع ويعم السلام..

كل شخص يزوره، يقول له:

ـ سلامتك يا كسبان.. إيه اللى جرى.. كفى الله الشر.

ـ أبداً يا خويا.. الكحة بنت الصَّرْمة طبقت فى صدرى مرة واحدة، وأنا لا بيَّه ولا عليَّه

يقول الزائر:

ـ جايز أخدت برد.. طلعت فى الهوا، وإنت سُخْن..

يضحك كسبان ضحكة خشنة، تجر فى ذيلها الكحة، ويضحك الحاضرون، ويقول أحدهم:

ـ برد إيه..هو كسبان يهمه.

ويقول آخر:

ـ أنا متأكد إن الحكومة بنت الكلب هى اللى بعتت الكحة ليَّه، لأنها ما تقدرش إلا على الغلابة.

المشكلة إنه لا يكف عن الكلام، وكل شخص يذكره بموقف، وكل أهل البلد مغرمين بكلامه، وانطلاقاته وسبِّه لأبطال الحكاية أو الخبر، خاصة لو كانوا من الكبار مثل العمد وضباط الشرطة.. يفتحه شخص بمجرد كلمة، كأن يقول له:

ـ المأمور.

وهكذا .. يكون المتحدث قد داس زرًّا، وفتح صفحة يعلم الله وحده متى ستنتهى، يصمت عندها كسبان لعدة ثوانٍ ثم يضحك وتجر الضحكة فى ذيلها الكحة، ولكنه لا يفلت الحكاية التى تذكرها ويشعر بضغطها عليه، ورغبتها المصيرية فى الخروج، ومعانقة أذان الناس المشرعة، والتى استشعرت أنَّ ثمة حِكايةً توشكُ أن تخرج من المخزن الكبير.

يمضى كسبان فى حديثه المتقطع متعثراً فى الكحة التى تبالغ فى محاولة انتزاع رئتيه بحق أو دون، لكنه لا يفلت الحكاية، خاصة مع رؤية الشوق واللهفة فى العيون، وإحساسه أن أجسامهم كلها أصبحت أذان مثل ورقة القلقاس أو أذن الفيل، ومزودة بأجهزة شفط، تمتد خراطيمها إلى حلق كسبان لتجر الكلام..

ما بين كحة وكحة، يقول كسبان:

ـ أمَّا كانت حتة دين علقة.

يمتلك الجميع خاصة الأطفال الغيظ من الكحة، ومثلهم النسوة الجالسات مع زوجته ملاصقات لباب غرفة الرجال، ينصتون بإمعان للسيرك الذى ينصبه كسبان.

يقول كسبان بعد إزاحة البلغم:

ـ ابن الكلب ساعتها.. لَهَفْنى كفين على صداغى، إنما إيه.. ولعوا نافوخى.

يعلق شوقى فراش المدرسة:
ـ وأنت انكتمت.
ويؤكد زميله كرم:
ـ طبعاً.. ده المأمور يابا..
يندفع كسبان قائلاً:
ـ انكتم إزاى يا بَأُف منك ليه.. وغلاوة أمك اللى أنت سبب عارها الوحيد، وخليتها ندمت على اليوم اللى شافتك فيه.

يندفع الجميع بالضحك، قاطعين الحبل المشدود لحماس كسبان، ويفرح الأطفال وهم يتصورونه عَنْترة، ويحاولون أن يَسْبقوه لتخمين ما فعل.. النسوة.. كان الله فى عونهن.. يكتمن بصعوبة شديدة ضحكات من القلب والبطن، وكل الأبدان توشك على الانفجار.. فالموت أيسر من خروج ضحكة أنثى، خاصة فى حضور هذا العدد من الرجال، وبالذات فى حضور كسبان لأن له بعدها كلام، وكلام ممكن أن يتحول إلى مصيبة.

تتعلق العيون والأذان وكل الحواس بشفاه كسبان، ولكنه يحاول أن يطمئن أولاً أن الكحة لن تهاجمه، ويسوى شاربه الكث ويبرم طرفيه ويشرد لحظة ثم يقول:
ـ أنا فعلاً انكتمت.. فضلت حسبة دقيقة زمن.. مرت علىَّ زى الدهر..
صحيت عليه يقول لي:
ـ واقف ليه يا معَفّن.. يللا غُور.

وفى لمح البصر كنت فوقه، قافش فى محاشمه.. عينى فى عينه قايدة نار، ولسه ح يفتح بُقه، وهو بيزق فيَّه.. لكن مين.. كلبة ومسكت عضمة.. قلت له:

ـ نهايتك فى أيدى.. ازعق ونادى وأنا أخلص عليك فى لحظة يا رِمَّة يا ابن الرِّمَّة..

يضحك بعض الحاضرين حتى تدمع عيونهم ويضرب الآخرون أكفهم ويصفق الأطفال وتتغير صفحات وجوه النساء وتتبدل ألوانها، تلتوى الرقاب جهة اليمين وجهة اليسار، وتنخفض أهداب وتنحنى رؤوس، ولا تدرى النسوة كيف يعبرن عن حيائهن لسماعهن ذلك الحديث، فقد كن جالسات مطمئنات، دون توقع أن يرد ضمن كلام المريض ذكر مثل هذه الأعضاء الحساسة، تشفق عليهن فكيهة فتقول:

ـ معلهش.. هو كلامه كده.. بس هو والنبى قلبهُ طيب.

تتفتح شهية الجميع، وقد يكذبه البعض فيشتمهم كسبان ويضحك، وبعضهم يكذبونه لكى يشتمهم، فتوليفة السب جديدة، وهى نفسها مثيرة للضحك، ولا تعتبر مبرراً أبداً للغضب مهما كان قُبْحُها وتعريضُها بالشخص المشتوم وعائلته.

شخص من الحضور عندما كذَّب كسبان فيما حكى عن حكايته مع المأمور، رد عليه كسبان:

ـ أنت بتكذبنى وأنا مش ح أزعل.. أنا زى أمك لما قالت لأبوك أنا حامل.. قالها: إنت كذابة أنا مليش فى الخلفة، لكن ما يخسرش، ومع ذلك ما زعلتش من أبوك.. والدتك ست محترمة زيى..

ـ أنا يا كسبان..

ـ أيوه أنت ما تخسَّرْش.

سكت الرجل لحظة ثم ابتسم، ولما ضحك الجميع.. ضحك.. وانتقل كسبان إلى غيره..

تتوالى الضحكات، تمنع الكحة تواصل الحكاية، ويكرهها الناس، وربما لأول مرة يشعرون أنها مرض سخيف ومزعج، بل هى فى رأى المشتاقين أسوأ ما يصاب به الإنسان..

يتعجل البعض نهاية الموقف المتأزم الذى لم يسمعوا بمثله، وليس لديهم دليل واضح على صدقه أو كذبه، والبعض يرجح أنه كذب، لكنهم فى الوقت نفسه يدركون حيل وبراعة وجرأة كسبان...

بدأ كل منهم ينسج المشهد، ويتابع بعيون خياله كف كسبان التى تعادل أربعة من أكف الرجال، فكفه بالذات دون سائر أعضاء جسمه كبيرة جدا بشكل زائد ولافت.. وأخذ كل من فى الجلسة ربما حتى النساء يجتهد فى تصور.. كيف تقبض هذه الكف على مقدمة المأمور..

ـ هيه.. وبعدين؟

ـ قلت له ازعق ونادى، لو راجل أو حتى اللى خلفك راجل..

يسكت كسبان، ويبتلع الحاضرون ريقهم فى انتظار انتقام الضابط، ينظر كسبان لحظات فى العيون التى تضرب فى بحارها أمواج متلاطمة من اللهفة والاشتياق.

ـ هيه.. وبعدين؟

ـ ما قدرش يفتح بُقهُ، وبإيدى الشمال سَكَعْتُه كف على صدغه وقلت له: ازعق ونادى..

يسكت فيتلهف الخلق، ويشرد ويتذكر فيضحك، وتجر الضحكة فى ذيلها الكحة، وبينما يكح طويلاً يتعجله البعض:

ـ هيه.. وبعدين؟

فيقول بهدوء شديد:

ـ بس خلاص.

ـ خلاص إزاي

تستولى عليهم الدهشة والإحباط ، وهم يعلمون جيداً أن الموقف لم ينته ، ولن ينتهى بهذه الصورة ، يخامر البعض إحساس مبهم بالخديعة ، فيثور البعض ثورة بيضاء.

ـ أيوه صحيح.. خلاص إزاى.

يقول كسبان وقد استرخى قليلاً :

ـ المهم .. سكعته كَفِّين ، ولما لقيته عمال يَصْفرْ ويخْضَرْ ، قلت فى بالى ، دول عالم قش.. أحسن يروح فيها.. يحسبوه علىَّ نفر.. ولسه بفكر أسيبه.. الباب خبط.. سبته ما قدرش يقول : ادخل ، قمت أنا فتحت الباب وخرجت.

يضحك ، ولا يضحك الحاضرون وإنما يسألون :

ـ هيه وبعدين؟

ـ قلت يا فكيك.

ـ لكن أنت ما قلتش.. المأمور طلبك ليه.

ـ ولاّ ضربك ليه.

يضحك كسبان ويتذكر.

ـ عمدتنا النجس الطاهر عبد الظاهر قصدنى فى شغلانة.. قلت على الله يتْمَرْ فيه.. قال إيه يا سيدى.. كلفنى أودى زيارة مليانة خير للمأمور ، لما عرفت إنها أكل معتبر.. فراخ وحمام وبط وفطير وعسل ورز معمر وزبده.. قلت لأ.. مَبدهاش.. ومفيش داعى أخدم العمدة قوى كده.. أخذتها وَفَرَّقْتَها على شوية ناس غلابة..

تانى يوم اتصل العمدة بالمأمور يطمن على رضاه عن الزيارة.. يحكى لى رزق الخفير إن العمدة فتح بُقهُ وعينيه وفضل مِتْجَمِّد مدة طويلة، لغاية ما اكتشف إن الخط اتقفل من بدرى.. ومؤكد إنه سمع اللى عمره ما سمعه.

ـ هيه.. وبعدين؟

ـ بعدين إيه !! ما خلاص..

ـ والعمدة عمل إيه؟

ـ بعت لى وسألنى.. قلت له على اللى عملته.. قعد يُلْطُم..

تانى يوم قاللي:

ـ عايزينك فى المركز .. المأمور بذات نفسه طلب يقابلك..

استلقى وعدك يا جميل، علشان تبقى تعمل لى فيها عنتر زمانك.

ـ هيه وبعدين؟

ـ انتوا عليكم عفريت اسمه.. هيه وبعدين.

ـ هيه وبعدين؟.. رحت للمأمور ولا لأ!!

ـ أروح لمين يا مقطف منك لـه.. المشكلة بين العمدة والمأمور.. أنا لا أخدت حاجة من العمدة ولا من المأمور.. وأعلى ما فى خيلهم يركبوه.

ينقلب الجميع على ظهورهم ضاحكين والبعض يقول قبل أن ينهض:

ـ حلال ما عملت فيهم يا كسبان.

(١١)
اعترف وأرحني

الطبيعة لا تكف عن عزف سيمفونية التجديد والتغيير.. الصباح مختلف عن عشرات الصباحات السابقة حيث كان الخريف بنسماته وجفافه وإشراقه هو المسيطر، لكن الليل كان يخفى بأستاره ما تعده السماء للأرض.. تنادت السحب وتجمعت وتعانقت وتلاقحت وتعمق حشدها المعتم لخزانات الماء.

مع أول خيوط النور الحيية.. أرعد الرعد، واستشعر الناس البرودة الشديدة.. آثر الكل البقاء إلا القليل جدًّا ممن يرتبطون بأعمال خارج القرية، وارتأى البعض أن ينتظر بعض الوقت، ثم يذهب بنفسه لحش البرسيم وحمله إلى مواشيه، التى يتعين أن تبقى اليوم فى دارها...

خرج كسبان ووقف على باب داره.. تطلع إلى السماء.. وسرعان ما انهمر المطر، كأنه كان على موعد.. ابتسم كسبان سعيداً بعناقيد المطر المندفعة.. تقدم إليها وفتح صدره، وعانق الرخات.. شرب وشرب.. تحمم وجرى وتقافز ودبدب، والعابرون به لا يكادون يرونه، وهم فى غمرة ركضهم بحثاً عن حماية، لكنهم ولابد كانوا يعلمون أن الراقص

فى المطر ليس غيره.. انتشى كسبان وفرح .. لمحه أحد الأطفال، وبعد دقيقة واحدة كان الأطفال يتبعون كسبان، بعد أن عبروا فوق أوامر الآباء وتحذير الأمهات.. خرجوا إليه فى مهرجان.. ولما ركض ركضوا خلفه، ولما رفع رأسه إلى السماء وشرب المطر فعلوا مثله.. وسطعت بالبهاء والبهجة نافورة الأطفال.. تتفرج عليهم فى دهشة أسراب العصافير، التى أسرعت إلى الأغصان تختبئ من صفعات المطر وتسوى الريش والأجنحة حول الأجساد الضئيلة.

أى عالم جميل، أيها الشقى تنسجه طبيعتك المستنفرة أبداً.. تلك الطبيعة التى جعلتنى بعد جدال طويل، أنتهى إلى رفض ترك القرية إلى قرية أخرى، تنفيذاً للترقية التى منحتها لى الوزارة من مدرس أول إلى وكيل مدرسة.. وشرطها الانتقال إلى بلد آخر لعدة سنوات.. كان ثمة هاجس بداخلى، يرجح بقائى حتى ألتقط أخبارك وحكاياتك أولاً بأول، وهى طازجة تمتلك الوهج المثير للدهشة..

اكتشفت أنك بداخلى تقبع فى ركن عميق بالوعى واللاوعى، وكنت أحسب أنك بعوضة أو ذبابة تلح على وجهى وأدفعها بيدى، وأنك مجرد شخص عادى، يحاول أن يلفت الأنظار أو ينفس عن ضغوط ثقيلة وظروف معيشية صعبة.

دمى يحتشد بالأسئلة عنك، أى سر جوهرى تكشفه طبيعتك وملكاتك؟ كلما حاولت أن أقنع نفسى بأنك شخص عادى، أدركت فى اللحظة نفسها أنى أبالغ فى التهوين من شأنك، فأنا متعلم وأنت جاهل.. أنا أعمل وأنت عاطل.. أنا أتمتع بمكانة أدبية واحترام لدى

الجميع، وأنت.. سامحنى.. فى الأغلب مسخرة وشخصية أقرب إلى المهرج.. أنا لا أحقد ولكن.. يا ابن خالي!!..

لا استطيع أن أمنع نفسي من استشعار الفارق.. نعم الفارق.. أليس ثمة فارق؟ لابد أن هناك فارقًا.. ربما فروق.

لست أدرى لماذا تذكرنى بالحى الذى سكنت فيه بالقاهرة.. عندما ألتقيك، وحتى دون ذلك أتصور أنك عبارة عن حى شعبى.. وأن بداخلك شوارع تمور بالخلائق، وهناك دراويش ومقام ولى ومساطيل وشحاذون ومشعوذون وباعة متجولون، وماسحو أحذية ولصوص.. أدخنة تتعالى من طهو الأطعمة وغلى السوائل، أتصور بداخلك حفلة زار، ورجال يتطوحون ونساء يتطوحن حتى يسقطن ويتمرغن على الأبسطة، ويسيل لعابهن وتتعرى أفخاذهن المحمومة.. بداخلك شباب يمارسون التحطيب، تصفر فوق رؤوسهم طلقات نارية احتفالاً بزواج أحدهم، بينما بالجوار القريب لا ينصت الناس لآلام جاموسة تئن فى رَصانة وهى تعانى المخاض الأول..

فجأة يتوقف المطر وتشرق الشمس بحماس، وتبدو السماء صفحة زرقاء بالغة الصفاء كأنها لم تحمل سحاباً قاتماً مثقلاً بالغيث.، وتعود إلى دارك لتجلس أمام النار، مادًّا ذراعيك وكفيك إليها طالباً الدفء، آملاً أن تجف ملابسك، رافضاً دعوة من يحدثك بخلعه، فكم تود أن تكون على بدنك وملابسك طعم ورائحة المطر.. عصير السحب وهدية السماء الرءوم.

لعلك تحب رائحة المطر كما تحب رائحة التبن والبهائم، والطين والزبد والمزارع والدواجن ورائحة الشاى، الذى طال غليه مذاباً فيه السكر، ورائحة البساطة والرضا.. ورائحة القرآن وهو يتلى على ألسنة ملهمة وحناجر عذبة.

لعلها مثلك، ملابسك التى تنسجم مع رائحة دماء القمل والبراغيث والبق والبعوض، منغمسة فى روائح العرق والدخان والظلام والانتظار المعتق، وصهر الأحلام والحكم الشعبية وحرارة الشمس، وحكايات الفقراء.

كم تجد ملابسك – مثلك – لذة فى احتواء الحمير والبغال والجاموس والماعز وأكوام الهباب! ولا تجد غضاضة فى استقبال فضلات العصافير والغربان والذباب، واستنشاق كل ألوان الرياح التى تهب من كافة أصناف المؤخرات، ومن المؤكد أنها تلقفت نفحات من خلايا جلدك المتحلل؛ إذ تلتصق بك لشهور، تتعمق فيها العشرة ويتأصل الاعتبار.. فأنت .. أنت ملابسك فى كل خلية من جسدك.. وفيك ما فى كل سنتمتر من أقمشة ملابسك، ويستطيع من يريد استنساخك أن يحصل على مادة د.ن. إ من ملابسك.

إلى هذا الحد كان الأقدمون أذكياء وعلماء، تنبهوا إلى أن أى قطعة من ملابس شخص تكفى لتركيب عمل له، يجعله يكره هذا الشخص أو ذاك، أو يحب فتى أو فتاة، أو يمقت داره أو تنعدم الحيوية تماماً فى عضوه الذكرى.. أو..أو.. أظن أن الأمر مختلف، إنه شيء آخر.. ومثلك ملابسك التى ينضح عليها جسدك وروحك ونبضات قلبك...

ما هذا الذى يقوله الآن جابر البوسطجى لكل من مر به وهو يتدفق بعجلته المعوجة؟ .. لابد أن عقله وعيناه مثل عجلته، لقد استوقفه من رآك تدخل دارك بعد المطر، ليتهمه بالعمى، إذ لا يعقل أن يقول جابر أنه رآك على طريق "مجول" على بعد خمسة كليو مترات قبل عشر دقائق، تتقافز تحت المطر وترقص وتغنى، وبالتحديد.. كنت تلمس بيدك اليمنى طرف قدمك اليمنى، وبيدك اليسرى قدمك اليسرى من الأمام ومن الخلف.

يؤكد جابر بأنه توقف ودعاك للركوب خلفه ليعيدك إلى البلد.. فرددت الرد المعتاد نفسه الذى تلقيه عليه كل مرة: روح يا واد لأمك.. خليها تلحسك..

أليس هذا دليلاً يثبت صدق ما كان يشيعه البعض من أنك أحياناً تختفى فى موضع لتظهر فى التوقيت نفسه فى موضع آخر؟... سألتك مرة فأنكرت.. ضحكت ساخراً وقلت إن منتجى الإشاعة يعانون الفراغ ويختلقون القصص...

ولكنك فى مرة أجبتنى بغموض نسبى غير مقصود:

ـ ما تسألش.. خليك مع الله.. حَدْ لهُ فى نفسه حاجة.

ألم تكن معى أول أمس بالضبط وقت آذان الظهر، وما أن تهربت من دعوتى للصلاة وغبت عن عينى، لحق بى الأستاذ رمزى مدرس العلوم هابطاً من سيارته العجوز، وقال إنك كنت معه أثناء أذان الظهر بالقرب من محطة السكة الحديد أى على بعد كيلو مترين!؟

لن أغامر بالقول إنك كائن بر هوائى، أو أنك تملك القدرة على أن تطفو فوق الأرض، وفوق الوجود المحدد، أو فيك قدر من الإثيرية.. لا.. لن أغامر أبدا.. ولن أقر بما يشاع أحياناً عمن يتمتعون بقوى خارقة، فيختفون فى مكان ويظهرون فى آخر، ويصادقون الجن ويستخدمونهم، فقل لى بالصدق وبحق ما بيننا من مودة واحترام.. هل حقًا ما قيل من أنك كنت قبل فجر أحد أيام الأسبوع الماضى تمص القصب وعنزتك أمام المسجد، وأنها تركتك عندما لاحظت بدء قدوم المصلين، وأنها قالت لك:

- يللا نصلى ياكسبان، وأنت قلت لها: اسبقينى على الميضة.

سبقتك إليها فعلاً.. ومضت تتوضأ، لكنها كانت قد أخذت شكل طفل فى السادسة، لم يره أهل البلد من قبل .. أرجوك، لا تضحك ضحكتك الخشنة العالية والساخرة.. أريد معرفة الحقيقة.. فاعترف وأرحنى.

كم أتعرض للأسئلة! فلا أملك الإجابة المقنعة التى تليق بى، وأنت غير مريح، وربما أنت تتعمد أن تترك الناس غرقى الأساطير. سوف أرتكب يوماً جريمة لا مفر منها.. سوف أدعوك لوليمة، أسقيك خلالها خمراً حتى الثمالة، ثم استدرجك لتفيض.. تنهمر روحك على لسانك، وتسيل اعترافاً بما ليس بالإمكان معرفته.. لا منك ولا من الناس، وأظنهم جميعا يميلون إلى أن تكون الحقيقة على هذه الدرجة من الوهم، وأن يكون الصدق على هذه الدرجة من الكذب، وأن يكون النور إلى هذا الحد من الظلام والغموض، والرؤية ضبابية، والعالم يسبح فى حالة من الوعى واللاوعى.. اليقظة والحلم.. الصحو

والغيبوبة.. وهكذا يرضى الجميع بنصف الرأس، الذى يسمح بالاستمتاع بنصف حياة ويكمل الناس بقية عشائهم بالكلام.

أصبح جليا أنّنى رويداً رويداً يغزونى الهذيان.. أنت السبب يا كسبان.. أخرج من رأسى بسرعة ودعنى.. دعنى أنسى ما قاله أحد البلهاء من أنه كان معك عندما تسلقت شجرة عالية، وظلت عيناه عليك لا يفلتك حتى اختفيت وأنت فى قمة الشجرة، تركب غصناً رقيقاً لا يحمل غُراباً فلما نفذ بأنظاره ودقَّق بين الأغصان والأوراق ولم يعثر عليك مضى يناديك.. ينادى بأعلى صوته، إلى أن فوجئ بك وراء ظهره تسأله بحدة:

ـ إنت بتصرخ ليه؟

سكت الرجل فجأة وقال إنه لم يتنبه إلى حاله إلا وهو يركض بعزم ما فيه بعيداً عنك وكادت روحه تغادر صدره، ولم يتوقف إلا داخل داره، ولم يكن هو أو الحاضرون يضربون كفًّا بكف، بل كنت أنت الذى تضرب كفا بكف من حال الرجل المخبول.. كذب.. أنا على ثقة أنه كذب.. دون أن أدرى كيف.. ولكنى محصن — فيما أحسب — ضد الخرافات.. فقل لى أرجوك إنه كذب، قل لى ما حدود روحك، وهل فى ذاكرتك شيء مما ألقته إليك عرائس الجن؟

أم أنك لا تعرف، ولم تحاول أن تعرف، ولم يبلغك شيء بالحلم أو بالرؤيا.. إننى أتعاطف جدًّا معك، لأننى أستشعر وكأن الإنسانية جمعاء قد تحققت فيك..

لماذا خرجت الآن من دارك.. لقد نلت قدراً كافياً من الدفء بعد انقشاع الغمام وانبلاج الشمس، وفرحة العباد بصفاء السماء.. أنت تقف أمام دارك.. وتتمطى.. ترفع بصرك إلى السماء.. يخرج إليك الأولاد من جديد.. بعض السحب البيضاء تظهر على استحياء.. تتكاثر وتسـود.. أضـواء الشمـس تتراجـع، ويرعد الرعد.. بالله ادخل دارك يا كسبان.. الظهر لم يؤذن بعد وها هى السماء تبرق، ولابد أن المطر امتطى جواده واتجه بسرعة كأسلاك الكهرباء.. على شكل حبات من الضوء البهى اللذيذ تمطر الأرض ونقشها؛ لتجرى أنت والأولاد مبتهجين، وتنطلق نافورتهم وهم يلتفون حولك، وأنت تتقافز وتفتح صدرك وفمك.. لتشرب من ماء الله، الأولاد يفعلون مثل ما تفعل.....

تختلط الضحكات بالمطر وتبتل الدنيا وتنكمش، لكنك سعيد ومتألق بالمرح والبراءة، بينما سوسن تمر حاضنة حقيبة المدرسة.. تلمحك فتضحك روحها، وتصعد الضحكة إلى الشفتين، فتفتر عن ابتسامة، وتواصل طريقها، بعد أن تهز رأسها دهشة من تصرفك الغريب.. رجل فى مثل سنك يلعب مع الأطفال تحت المطر.. تقع عيناك عليها.. تدعو لها بالتوفيق والسلامة.. ترافقها نظراتك لحظات.. تنقر بخطواتها على أرضية قلبك.. تعود إلى الأطفال ثم ترفع رأسك إلى السماء وتجرى فيجرى الأطفال خلفك.. وسرعان ما يتوقف المطر وتصفو السماء وتبتهج الحياة بالنور.. وتعود إلى دارك، وأعود أنا لتأمل العلاقة بينك وبين الطبيعة.

(١٢)

ميلاد الأربعة

لم يحب زوجته، لكنه كان راضيًا عن وجودها، معجباً بروحها الودود وإقبالها على العمل بحماس.. كما كان معجباً بطعامها وقدرتها على أن تخلق من الفسيخ شربات، وأن تصنع وجبة شهية دون إمكانات أو مصروفات.

عاد لاستعراض قدراته مقابل المكاسب الصغيرة.. بالإضافة إلى عمله فى الأراضى وصيد السمك، الذى كان يمسكه بيده وليس بسنارة أو شبك.. كانت لديه قدرة غريبة على الانقضاض على السمك فى الترع والأنهار.

كان يروى الحقول بالدلو بسرعة تساوى ماكينة الرى، ويلجأ إليه كل من لا يستطيع استئجار الماكينة، أو لا يتمكن من العثور عليها.

يدهش الناس جدًّا لبقائه تحت ماء النهر لأكثر من نصف ساعة، يغطس أمام عيونهم ويبقى حتى يشكوا أنه قد غرق وانتهى أمره، بسبب طيشه واغتراره بقوته، ثم يطفو أمامهم، حتى قيل إن له بيتاً فى القاع، وأنه متزوج من جنية، كثيراً ما سأله الناس عنها، وفى مرة وصفها لهم.

حدثهم عن شعرها الطويل الأحمر، وجسدها الأبيض، وقال إن نصفها الأعلى فيه كل ملامح المرأة الجميلة جدًّا.. لكن بلا أنف ولا أذنين، لها ذراعان وكفان ولا أصابع.. نصفها السفلى مثل بدن سمكة، لها ذيل طويل، ولها فرج أمامى وخلفى كالمرأة تماماً وكلامها قليل وليس بلغتنا. وهى تسكن فى قصر كل ما فيه أبيض، ولا يعرف الظلام أبداً. القصر داخل بلورة، جدرانها الشفافة هى التى تشع بالنور، ومن يخدمونها لا يشبهونها، ولكنهم كالسمك تماماً، وينفذون لها ما تشاء، داخل الماء وخارجه...

وعندما تبلغ هذه القصص أسماع فكيهة، تضحك وتقول:

- براحته .. يعمل ما بداله.

المرة الوحيدة التى أصيب فيها بالأنفلونزا.. رحبت بكل من جاء وقدمت لهم ما تستطيع وما يتوافر بالبيت، وكان كسبان دائم التفكير فى قول أبيها سليم البكرى.

- ح تكون وش السعد عليك.

ويؤكد كسبان لنفسه إن الرجل لم يكن يعرف إن كانت وش السعد أو قفاه.. المهم أنه كان يود أن يشجعه على تولى مسئوليتها وحفظها من أولاد الحرام ومن أخيها.

بالفعل يشعر أن حالة البيت أفضل.. وهو لا يريد أكثر من هذا، بل لا يحتمل أكثر من هذا.. ولم يشعر يوماً بأنه مسكين أو فقير أو محتاج.. لا يفكر فى المال ولا يرى داعياً قوياً له.. يرى أنه يلزم لتسيير حياتنا، ولا يتعين أن يكون على حساب المحبة والسلام والشهامة واحترام

مشاعر البشر، ولا يكون مصدره الاستغلال والظلم أو من دروب نهى الله عنها.

كان مقتنعاً، لا أدرى لماذا، بأن سرقة الأغنياء الظلمة حلال وحق، بل واجب، وكم من مرة تناقشت معه فى هذا فقاومنى بشدة، وبرغم تأكيدى أن السرقة هى سرقة سواء من ظالم أو مظلوم، من غنى أو فقير، لم يستجب وظلت رأسه كالصخرة لا تعرف الاستجابة لطرقاتى القوية.

لذلك عاد مرة ثانية وثالثة وسرق أنس عبد الظاهر شقيق العمدة وباع البقرتين فى سوق بعيدة، ووزع المال على المحتاجين دون أن يدركوا من ألقاه إليهم.. وعزم بينه وبين نفسه على أن ما تطوله يده فى المستقبل سيحاول أن يؤسس به مشروعاً خيريًّا فى شكل عيادة صغيرة، يشرف عليها طبيب، ومكتب لمساعدة الفقراء والمحتاجين، لم يتحقق ذلك إلا بعد سنتين، ولم يكن مصدره مالاً مسروقاً، لكنه كان مالاً حلالاً وأكثر مما تحتاجه بلد بكاملها.

أحياناً أشعر أن كسبان ليس مجرد فرد، وإنما مملكة، وأنتم لا شك تجهلون أبعاد هذه المملكة المترامية، ولا تتصورون اتساعها وعمقها.. سماواتها وأراضيها.. أنتم لا تدركون حجم مبانيها الشاهقة وشرفاتها الفسيحة.. لم تتوافر لكم أية مصادر للمعرفة؛ كى تحيطوا علماً بأغوار أنهارها، وخصوبة حقولها ورحابة آفاقها وحلاوة ثمرها.

مملكة قريبة وبعيدة.. سهلة ومستحيلة ..حبيبة وغريبة.. طريفة وعجيبة .. تحفل بالأسرار، وتمتلئ بالتناقض على الأقل من وجهة نظرنا..

كسبان يُعَدُّ فى سوق الرجال نكرة، لكنه مشهور، بسيط لكنه مهم، ضعيف لكنه خطير ويخشى الجميع بأسه، فقير لكنه يتصرف كغنى.. فرد، لكنه كالمؤيد بجماعة كبيرة العدد.. أحلامه صغيرة لكنها تتحقق بأكثر مما يريد.. تتمنى زوجته إبان الحمل أن تتذوق المشمش، فيخرج تاركاً البيت ليتمشى وقد نسى موضوع المشمش، فإذا شخص يقابله حاملاً كيساً به المشمش.. حبات قليلة ولكنها كبيرة وناضجة، ويقول له:

ـ البشاير ظهرت.. قلت أول من يأكلها كسبان.

يفاجأ كسبان بالهدية البسيطة والثمينة فى آن، ويرجع من جولته إلى زوجته وهو يحاول أن يتذكر هذا الرجل الذى نادراً ما يلقاه؛ إذ يقيم على أطراف القرية وأخيرًا يتذكره، فقد أنقذ ولده من الغرق يوماً ما، وتأثر الرجل يومها جدًّا من صنع كسبان، حتى أنه حاول تقبيل يده.

تمنى ولدا.. فوضعت زوجته أربعة دفعة واحدة.. ثلاثة ذكور، وبنتا وتعجب الكَفْر كله من ذلك.. وأكد لزوجته ألا تفكر فى الإنجاب مرة أخرى، فقد جاءها ما كان يمكن أن يأتى على مدى عشر سنوات.. وإن كان الجهد سيكون أضعافاً، لكن الله معين ورازق.

تعجب الناس، فلم يحدث مطلقاً أن أنجب أحد فى القرية مثل هذا العدد فى بطن واحدة، وقد توقع الكثيرون ولو فى أعماقهم أن الأربعة لن يستمروا أحياء وقد يبقى اثنان، وقد حدث منذ أربعين عاماً أن أنجب أحد أبناء البلد ثلاثة.. وضعتهم أمهم بحالة جيدة، لكن أحدهم سرعان ما رحل.

على أية حال.. فقد أضاف أهل القرية هذا الحدث إلى قائمة عجائب كسبان، الذى يبدو فى نظرهم مرتبطاً بالعجائب.. ولم يكونوا يعلمون شيئاً عن قدرته على ضرب النار فترة التجنيد، إلى أن زاره بعض زملائه فى الكتيبة، والتقوا به وبأقربائه وتحدثوا عن ملكاته الغريبة فى التصويب، ولم يكن أى هدف يفلت من رصاصته مهما كان ضئيلاً كالذبابة، حتى كان يطلق النار على جانب القرش (سمك المعدن) من مسافة عشرة أمتار فيسقطه، وعلى قلم رصاص من مسافة عشرين متراً.

يقول أحد الزملاء إنهم جميعاً فى دهشة لعدم موافقة القيادة على الإفادة به مدرباً، وكتب رئيس الكتيبة ثلاث مرات للقيادة بعد انتهاء خدمة كسبان طالباً عودته.. دون جدوى.

أما الرقيب طه فقد كشف السر قائلاً إن السبب قيام كسبان بضرب ضابط فى الشهور الأولى من خدمته، وحوكم عسكريًّا وعوقب بالحبس شهرين، ومازال الملف به مستندات هذه الواقعة.

زرت كسبان أنا وزملائى المدرسين، وأهدينا زوجته بعض الهدايا المالية والعينية، والتقطنا الصور مع المواليد الأربعة.. ربنا يحفظهم .. ولما طبعنا الصور، أرسلنا بعضها إليه.. فعلق اثنين على الجدار وحولها آيات قرآنية.

(١٣)
الظرف الأصفر

هالتك المكتبة الكبيرة.. الممتلئة بالكتب من الأرض إلى السقف.. كتب لا يظهر لك من ورائها أى حائط .. كأن الأرفف المنتشرة فى كل الأركان هى التى ترفع السقف.. وبينها فقط باب ونافذة تطل على الحديقة، وعليها ستارة بيضاء مخملية.

قابلتك "نهلة هانم" ورحبت بك ابنة خالتها "جنان" .. جلست دقائق فى الردهة الفسيحة المفروشة ببلاط ناعم جدا ولامع، بلاطة بيضاء وأخرى سوداء.. سلمتك السيدة مائة جنيه، قائلة:

- حُطْ دول فى جيبك.. دى هدية العيال.

قالت "جنان":

- مبروك.. سمعت إنك خلفت أربعة.

- إرادة ربنا...

سألتك نهلة:

- إنت مبسوط.

ـ لو مانبسطش أعمل إيه.

ضحكاً معا وتبادلا النظرات. وضحكت عالياً.

قالت لك نهلة:

ـ حُطِ الفلوس فى جيبك.

كنت لا تزال تمسك بها فى يدك، يغالبك خاطر رفضها..

سألتك "جنان":

ـ الأولاد شكلك ولاَّ طالعين لأمهم.

ابتسمْتَ يا كسبان، وقلت:

ـ هم من غير شكل.. لكن أكيد شكلنا أو شكل ولاد كفرنا.. هما يعنى ح يطلعوا زى أولاد الأفرنج.

قالت "نهلة" وهى تنظر إلى "جنان"، بعد أن اقتربت قليلاً منك:

ـ كسبان.. إنت باين عليك طيب..

رددت بسرعة:

ـ عُمْر ما حد قال علىَّ كده.. أكيد إشاعات مغرضة...

ضحكت "جنان" ولمعت عيناها بقليل من الدهشة والإعجاب.

واصلت "نهلة" كلامها:

ـ أنا بصراحة.. إذا سمحت ووافقت.. عايزاك تدينى عيل من عيالك وح أكافأك مكافأة كبيرة.

لم تفكر طويلاً وأجبتها:

ـ ومن غير مكافأة يا هانم.. خديهم كلهم..

ضحكت الاتنان واشتعل وجه "نهلة" احمراراً، وأشرقت ملامحها من فرط السرور.

لماذا لم تناقش الموضوع مع نفسك أو مع زوجتك وأمك.. إنت تسرعت يا كسبان.. كان عليك حتى أن تطلب وقتاً للتفكير.

ـ باكلمك جد..

ـ وأنا بكلمك جد..

ـ طب مش تسأل الست أم الأولاد.

ضحكت وضربت كفًا بكف.. عادت تسألك إذا كنت حقًا موافقًا، أكدت موافقتك.. وقفت السيدتان، ووقفت.. قالت "نهلة" وهى تكاد ترقص: ألف .. ألف شكر..

ابتسمت فى تواضع ..

فقالت:

ـ تَعالَ قابل الدكتور..

عندما دخلت مكتب الدكتور معهما.. رفعت رأسك وانفتحت عيناك على الآخر، قلبك دق، كأنك داخل قصر الملك أو قلعة السلطان.. هالتك المكتبة العامرة بالكتب، لكنك لم ترتح فى البداية للغرفة شاحبة الضوء، كان الدكتور يوسف النجار يجلس إلى مكتبه وإلى يساره أباجورة.. لا يبدو وجهه بوضوح.. قام ورحب بك، وأجلسك أمامه بإشارة من يده.

نظر إلى زوجته فهزت رأسها.. قال لك:

ـ نحن نقدر موقفك يا سيد كسبان.. اتفضل.

مد إليك يده بظرف أصفر.. قلت:

ـ ده تمن العيل؟

ـ لأ..

ـ أُمال!!

ـ العيل حيفضل باسمك.. ده الشرع.. لكن ح يعيش معانا.. طبعاً إذا سمحت..

ـ أنا مش عايز فلوس..

ـ لازم تاخدهم..

ـ يا دكتور..

قالت "نهلة":

ـ خلاص يا كسبان.. ما تكسفش الدكتور.

مددت يدك وأخذت الظرف دون حماس..

سألتك نهلة.. وهى تتقافز:

ـ ح تجيبه إمتى؟

ـ الليلة.

ـ ليه مش دلوقت؟

سَكَتَّ حائراً أو شبه حائر.. قال الدكتور:

ـ فى انتظارك بعد العشاء ... شكرًا.

خرجت صامتًا، ولم تكن بالضبط هى نفسها الحالة التى دخلت بها.. ماذا جرى لك؟ .. هل ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.

قالت أمك:

- لأ.. الرجل ده متغطرس، وما بيسلمشى على حد..

- ده أستاذ فى الجامعة الكبيرة فى مصر، ومش فاضى، وما يعرفش حد ويظهر ما بيقعدش مع مراته، وما عندوش عيال.. ربنا ما أرادش..

- أنا قلت لك اللى عندى وخلاص.

- خدى يا أم.. الظرف ده.. شيليه معاكى.

- فيه إيه؟

- عدى وشوفى، باينهم ألف جنيه.

- بتتكلم بجد يا وله.. طيب ما تديله العيال كلها.. وألا أقولك ما ياخدنى أنا نفسى .. شوف ح يدفعلك كام.

ضحك الجميع وبكت أم الأولاد، كانت تتمنى أن تصحبك إلى الفيلا لترى الباشوات وتودع ولدها.. ضَناها.

قالت أمك: إن الرجل طيب وفى حالهُ، والناس من ظلمها تقول عليه متغطرس.

كانت "جنان" ونهلة يجلسان فى الفراندة المطلة على البوابة ينتظران المولود. أسرعا إليه.. احتضنته نهلة وهجمت عليه بالقبلات.. قبلت أصابع قدميه.. إصبعاً بعد إصبع، وأصابع يديه، واحداً فواحداً وأذنيه ورأسه وجبهته و.. عادت تقبله.. كان مستحمًّا بالماء الدافئ ومرشوش عليه بودرة و.. رائحته كانت طيبة .. قال كسبان:

- بكره الصبح ح تيجى لك أمه.. علشان تشوفه..

أخذته الخادمة المخصصة له..أكدت عليها نهلة بأن يحظى باهتمام لا يحظى به أحد على الأرض، ولا حتى الدكتور، وأن عليها ألاَّ تغفل أبداً عنه.. تنهدت "نهلة".. شردت ثم بكت، ووضعت رأسها على صدر "جنان" التى شردت أيضاً، ثم فى صمت سالت دموعها.

كُنْتَ تفكر طوال الطريق، بعد أن سلمك الدكتور الظرف الأصفر، فى حكمة الخالق الذى وهب بعض الناس أولاداً ولم يهب آخرين.. وتأملت طويلاً سحر الأولاد والتطور الغريب الذى يحدث لأى بيت بعد وصولهم.. لم تكن تأبه بهم من قبل، وبعد أن أنجبت سال فى قلبك الحب الشديد لهم.. الإعجاب بتكوينهم وطبيعتهم .. كنت قد شعرت بمثل ذلك إلا قليلاً، عندما زرت أخواتك الذين أكرمهم الله بالإنجاب.

أصبح غراماً لديك رؤية الأطفال والسؤال عنهم وملاعبتهم، ورفعهم إلى أعلى واحتضانهم والنظر إلى عيونهم وإمساك أيديهم وتقبيل أصابعهم.. تنتظر بشوق ضحكتهم، التى تطل أولا فى عيونهم، وتتعلق بنظراتهم ثم تسرى فى بقية الوجه والملامح، وتشارك الأيدى والأقدام فى عملية الضحك والفرح.. ساعتها تشعر كأنك تطير.. وأنك خفيف، وراض.. وأن الدنيا جميلة، ولا شيء تأمله منها بعد ذلك.. فأقصى مناك أن يبتسم الرضيع لك.

فكرت فى الدكتور المنصرف إلى كتبه وأوراقه، وغالبك اليقين بأن الرجل لا يعبأ بمسألة الأطفال.. لكن زوجته هى المتلهفة عليهم، وفى الوقت ذاته فهو يريدها أن تنشغل عنه بشيء فلا تهاجم وقته أو تشغل فكره، أو تطالبه بالانتقال من عزلة الفيلا إلى الأصدقاء والأهل والسهر

فى القاهرة، التى قرر أن يغادرها استياء من ضجيجها ورغبة فى التفرغ لقراءاته.

أنت لا تعلم يا كسبان فيما أحسب ما يشغل الدكتور.. إنك لابد فقط تعلم أنه أستاذ فى الجامعة، ولكنه أيضاً مشغول بالتنقيب عن عظماء البلاد، الذين تجاهلهم الباحثون والتاريخ وغمرهم النسيان.. رجال لم يحظوا بالشهرة ولا التقدير، ولكنهم كانوا هم الجنود المجهولين الحقيقيين المخلصين وراء الأعمال العظيمة، سواء قديماً أو حديثاً.. الذين قادوا المقاومة ضد الفرنسيين أيام حملة بونابرت، والذين قاوموا استبداد محمد على وحماقة الخديوى إسماعيل، والذين وقفوا مع عرابى وعبد الله النديم، والذين وقفوا مع سعد زغلول وضد كرومر ومع النحاس .. وفى حرب فلسطين.. وكذلك المفكرون والأدباء الذين شردتهم السلطات، وكانوا قمة فى الوطنية والشرف، وأهيلت عليهم تلال التجاهل والتنكر.

رجل فاضل للغاية يا كسبان، تخصص فى البحث عن كنوز البلاد التى أهملها الحاقدون والجهلة والمتسلطون والمتسلقون.. وهب عمره لهذا العمل، وأتوقع أن يكون أحد المظاليم الذين سيشملهم النسيان والتجاهل، هو نفسه يثق بذلك.. لكن الأمر لا يعنيه ولا يصرفه عن مهمته المقدسة.. وأنت قدمت خدمة جليلة له دون أن تقصد.. فشكرا لك يا ابن خالى.

هل تتصور يا ابن خالى، أنى تمنيت أن أكون مثلك.. يسهل على أن أخرج الدنيا من أعماقى فى أى لحظة أشاء، أخلعها بسرعة، كما تخلع أنت سروالك وحذاءك.. هذه هى الحرية الحقيقية.. نادراً ما يعلم الناس

ذلك، وللأسف نادراً ما يعلم المثقفون ذلك، والذين حصلوا على قدر كبير من التعليم.. هذا هو سحرك الأول والأهم..

لكنك بالقطع لا تعلم أن تأهبك الدائم لخلع الدنيا، كما منحك الحرية الأصيلة والنبيلة، ومنحك أجنحة للطيران والانطلاق والحب والأمل، خلصك.. وهذا أمر مهم جدًّا.. من الهم والأرق والتفكير الأسود المحموم، كما خلصك من الحقد.. فأنت لا تأسى مطلقاً لما يتمتع به غيرك أو ناله أى شخص حتى لو عدوك.. أنا أستطيع أن أتأملك، ولكنى لا أستطيع أن أجاريك، ولعل تأملى هذا يساعدنى على تدريب روحى على التخلص من الدنيا..وقليلاً ما أفعل.

وسبب المشكلة أن حب الدنيا مزروع فى طبعى وقلبى، كما هو عند كل الناس، ففى أغلب الأحيان تغلبنى عواصف النسيان، تجتاحنى تماماً وتغلق كل نافذة، يمكن أن تطل منها فكرة أن من اليسير التنازل وقمع الرغبات.. الدنيا لها نداء عارم وعنيف ومستبد، وأوامرها لا ترد، والإذعان لها أيسر وألذ، فبقدر إقبالى أنا على الدنيا – ككل البشر – بقدر إقبالك على إعطائها ظهرك، وبقدر محاولة الناس التدرب على قبض اليد على ما اكتسبوه، بقدر محاولتك فض اليد عما كان ملكك، والاستمتاع بنومك وبساطتك وانطلاقك، وسهولة الرد على خصومك، مهما كانت كراسيهم عالية وأيديهم طويلة وضرباتهم قاصمة.

(١٤)

سيدة القصر

جاس به الممشى الذى تفرشه بلاطات حجرية سوداء خلال منحنيات ظليلة، تسمح لقليل من فتات الضوء.. كأنها آلاف العيون تتناثر تحت قدميه، وأمام ناظريه ليرى على هداها روعة الخمائل الصغيرة الموزعة على الجانبين، يفوح منها الهدوء الوبرى الناعم.. تلقفته أمواج العبير التى تطلقها شجيرات الياسمين والريحان والفل.. أحس فى تلك اللحظات أنه محمول على محفة ناعمة تحتضن عوده، وأن ثمة موسيقى لذيذة تنفذ إلى أعماقه وتدغدغ مشاعره.. أيقن أنه لم يعرف الجمال الحقيقى بعد، وأن عليه أن يفتح روحه لوداعة هذا العالم الغريب.

مساحات الزهور المورقة ممتدة، تواصل البوح بالعطور الملهمة وتجعل الدقائق التى تنقضى بينها زمناً من السحر والبهجة.. فى قرارة نفسه يتساءل عن السر فى أن بعض الأغنياء لا تعجبهم الدنيا ولا يسعدهم ما هم فيه من خير، ما الذى يمكن أن يطلبه إنسان إذا أنعم الله عليه فقط بمجموعة من شجر الورد؛ حيث يستطيع الفراش

والنحل والعصافير أن تزوره، بينما يتغذى على الروائح التى خصصت فقط للعشاق والحالمين.

امتدت به الطريق بين أدغال الظل والشذى، إلى أن انفتح الطريق فجأة على مساحة صغيرة على يمينها مبنى أبيض صغير تسبقه درجات عريضة من رخام ذهبى، تفضى إلى شرفة فسيحة، تحمل سقفها أربعة أعمدة رخامية رفيعة، وكانت بين الأعمدة تقف السيدة الرشيقة الأنيقة بجفونها الفضية وعيونها الواسعة المرحبة، تزينها أهداب طويلة سوداء وجبينها اللؤلؤى تتوزع على جانبيه خصلات من شعر فاحم يلمع، دهش كسبان كيف تلمع الظلمة؟! ها هو الوجه الوردى الجميل يمور بالحيوية والبهاء،وكان للسيدة بالإجمال طلعة مهيبة ووقفة شامخة وفرها الطول الفارغ والجسد الريان المتناسق، والثوب المرقش بالأزهار على البطن وعلى الجانبين وعلى الصدر.. زهور خافتة اللون، صغيرة الحجم.. تنتظم فى نسق جميل حى.

توقف كسبان لحظات، يبدو أنها قد طالت وهو يتطلع إليها وكان يجب أن يفعل .. إلى أن أشارت إليه بيدها وعينيها الصافيتين أن يتقدم ولا يخشى شيئاً .. فتقدم.

رحبت بك، وقالت وهى تتقدمك بخطوة بعد خطوة: أنا آسفة إنى طلبت أقابلك هنا فى بيتى، وطبعاً فكرت كثيراً أن أقابلك فى بيت "نهلة".. وما ارتحتش للفكرة.. وفكرت طبعاً أن أزورك فى بيتك.. وبارضه ما رتحتش للفكرة.. أنا يا كسبان من يوم ما شفتك بتقلب عربية رجب النجار .. قلت لازم أتعرف بالرجل الغريب ده.

- ما غريب إلا الشيطان يا ست هانم.

احمر ووجها وأسرعت تقول مع ابتسامة وخجل :

- مش قصدى.. قصدى إن أنا ما عرفكش .

- مفهوم.

- وكمان بلاش ست هانم لو سمحت.. أنا اسمى "جنان".

- بتتكلمى جد...

زاد ارتباكها..

- يعنى إيه باتكلم جد.. أنا اسمى "جنان"..

- وأهلك عرفوا إزاى وإنت لسه حتة لحمة ، وسموك الاسم المضبوط ده...

أخذت تضحك وتضحك ، وأخيراً قالت له :

- إنت شايف كده...

- سامحينى.. أيوه شايف كده...

اكتست ملامحها بالجدية :

- وضح لو سمحت.

- إنت وبيتك والخدم والزرع والنافورات والهدوء والجمال.. كلها حاجات آخر جنان..

- يعنى أنا مجنونة.

- لأ.. أقصد شيء جميل خالص.

- مرسيه.. ما قلتليش إنت اضايقت ؛ لأنى بعت لك علشان أتعرف عليك .

ـ لأ.. أنا طبعاً شفتك كذا مرة.. بس السواق قال إنك عايزانى فى حاجة مهمة جدًا..

طلبت منك أن تحكى لها أى شيء وكل شيء .. كل ما تتذكره ويخطر على بالك... عن حياتك وتجاربك..عن الناس والقرية.. عن النساء والرجال والحيوانات والأطفال.. قالت إنها تشعر بوحدة غريبة ومستبدة رغم معرفتها بالعشرات، لكن روحها تسبح فى وحشة لا نهائية.. تبحث فى كل وقت عن قرين.. عن شريك قريب.. تعترف به روحها وتختاره، ومنذ وقعت عيناها عليك لأول مرة.. يوم رأتك تقلب سيارة رجب النجار فى الترعة، وثانى مرة عندما رأتك قبل أسابيع تسلم لشقيقه يوسف ولدك عن طيب خاطر فى سمو ونبالة.. عندئذ قالت:

ـ إنه هو ذاك الرجل فيما يبدو.

تأكدت من ذلك عندما طافت صورتك بخيالها غير مرة.. قالت فى نفسها: الأقدار هى التى ترتب.

قالت لك إن الروح وتطلعاتها ونزواتها وسبل تحركها فى فلكها سر من الأسرار، التى تخفى حتى على صاحبها.. الروح كيان مستقل ونبيل ويختلف كثيراً عما كنا نتصور..

الإنسان مهما بلغ عقله من العلم، ومهما حصل من المعرفة والحكمة والخبرة.. فغير مستطيع أن يدرك آفاق الروح.. وأن يسبر ذلك الغور، ويتعرف فلسفة الأسرار التى توجه الروح، وهى تتشكل فى عمق الأعماق النفسية، وقالت إنها تريدك أن تكون الصديق المقرب

والأنيس، بل والحارس، فسألتها عن فكرة الحارس.. قالت إنها لا تعنيها بالتحديد، فيكفى أن تكون المرافق لها والصديق.. ولأن هذا كلام لا يصلح اجتماعيًا فليكن اسمك حارس، ولك أجر، لأنك ستقيم — إذا وافقت — فى الفيلا إقامة شبه دائمة، يمكن أن تغيب عنها فى الأسبوع يوماً أو يومين على الأكثر.. وطلبت منك أن تحدد ما تشاء من أجر..

المهم أن تقبل تولى مهمة الحراسة.. الحراسة الشخصية.. أى أن تكون معها معظم الوقت.

بإيجاز .. حكت لك عن حياتها وزوجها الذى رحل، وموقف أهله منها ووحدتها، والأملاك التى تحتاج إلى من يتابع العمل فيها؛ لأن أباها وأخاها مسئولان عن المصنع.

عرضت عليك صورها فى بلاد كثيرة وصور زوجها، وصورها مع أقاربها وخاصة "نهلة" وزوجها... اعترفت لك برغبة رجب فى الزواج بها ورفضها.. واعترفت أيضاً بأنه ذو ثراء مادى جدًّا ومغرور وعصبى ويجرح الآخرين بسهولة.

ارتحت لشخصيتها.. أكلت معها بشهية، وشربت وخلعت تدريجيًّا أردية الغربة..

وسرعان ما قبلت العمل معها، وقد أكدت لك أن شيئاً أو شخصاً لن يزعجك...

ليس مطلوباً منك إلا أن تكون موجوداً فى الفيلا وبالتحديد معها.

كل يوم تحكى لها حكاية وهى فى دهشة لا تكاد تصدق، لكنها تصدق وتطلب التفاصيل.. تطعمك بيديها وتسقيك وهى شبه عريانة، وترجوك أن تكون مثلها على سجيتك ...

وتغرق فى الضحك والسعادة، وأنت تحكى لها عن ألعابك ومواهبك ومغامراتك.

بعد أن تنتهى من حكاية الليل تأخذك وتغطس بك فى الحمام، وأحياناً تطلب منك أن تحملها وتجرى بها حول الحمام ثم تلقيها فيه، وقد تخطف قطعة من ملابسك وتجرى أمامك لتطاردها، وتمسكها فتقبض عليك وتقبلك كثيراً، وعندما تضمها بحنان إلى صدرك ويهبط جسمها المستفز وينكمش بين أحضانك.. تبكى وتبكى ولا تقول شيئاً إلا "خليك يا كسبان معايا على طول".

فتقول لها: "معاكى.. اطمني"..

تحضر لك من يدلكك ويهذب شعرك وشاربك.

بعد أسبوع عدت لزوجتك وأولادك، و أنبأتهم — ولم تكن قد فعلت عند غيابك — أنك تعمل عند سيدة فى البندر، ولم يصدق أحد كلامك، فاليقين لديهم أنك كنت عند الجنية التى كانت تأخذك إلى الماء منذ سنوات. لكنهم عندما تلقفوا الخيرات التى حملتها بدأوا يشكون فى حكاية الجنية..

حاولوا اقتفاء أثرك ففشلوا.. لأنك رغبت ألاَّ يعرفوا شيئاً عن السيدة المستهامة بك.

زرت معها مصنع أدوات التجميل الذى تمتلكه.. أدهشك حجمه وعدد العاملين وكميات الإنتاج، والحركة الصاخبة التى تدب فيه.. تعرفت فيه على أبيها وأخيها اللذين يقومان بإدارة المصنع..

ألبستك البدلة وأنت ضقت بها.. كانت تقيم حفلة كل أسبوع بقصرها الفخم.. قالت لأصدقائها إنك رجل أعمال ثرى جدًّا.. تتاجر فى السلاح والألماس والبواخر.. غضبت .. هربت..عدت إلى دارك عازماً على ألا ترجع إليها، مهما حدث.

أرسلت إليك من يطلبك.. رفضت.. أرسلت وألحت.. عدت.. أكدت لها أنك لا تكذب أبداً.. وأنك لست إلا عاطلاً وجاهلاً.. كشفت عن خطتها ورغبتها فى تعليمك، وأحضرت لك بالفعل مدرسين يعلمونك حتى تحصل على الإعدادية والثانوية.. عرضت عليك الزواج.. قبلت.. لم تفعل أبداً إلا ما يرضيك.

فى إحدى الليالى والأرواح تتعانق قبل الأجساد، سألتها عن صفحات ماضيها.. قصت عليك جانباً كبيراً من حياتها، خاصة زواجها برجل الأعمال "زاهى الجابري"، بعد أن رآها فى إحدى الحفلات بمناسبة عرض فيلمها الجديد.. لم تكن فيه أكثر من كومبارس.. ظهرت فيه كطالبة جامعية يحبها ابن البطل، ويرفض الأب زواجه منها.. تعارفا وعرض عليها الزواج.. تدللت عليه.. جرجرته طويلاً إلى أن وافقت بشرط أن يكتب لها شقة بالقاهرة وفيلا بالريف ومصنعاً..

وافق وتزوجا.. وبعد عدة أشهر طلب منها ترك التمثيل، فتركته.. أدركت أن طوق النجاة من الفقر، ألقاه الله إليها، فلتتعلق به ولو دون حب.. قالت إنها لم تكن تحب التمثيل.. عرض عليها أحد الأصدقاء

ذلك، فوافقت بحثاً عن الشهرة والمال.. جاء لها المال عن طريق الزوج الثرى.. تزوجت من "زاهي" الذى كان وسيماً جدًّا، ويتميز بشخصية قوية.. ولكنه يتعاطى الخمر، اقترض من البنوك نحو ٣٢٠ مليون جنيه.. اشترى منها أرضاً..حوالى مليون متر فى ٦ أكتوبر ومثلها فى محافظة البحيرة وعشرة آلاف في النوبارية، أنشأ مصنعاً للسيراميك وآخر للملابس، وشارك صديقاً فى تأسيس مصنع مواسير.

طلبت منه ألا يخبر أحداً بزواجهما.. لديه من زوجته الأولى ولدان وبنتان.. كانت تتوقع المشكلات.

بقيت على ذمته خمس سنوات دون إنجاب.. لم يكن فيه عيب غير عصبيته وغيرته الزائدة.. وكانت فى رعب منه لأنه كثير الغضب ويحمل سلاحاً، وقد حضرت له معركة ضارية بالأصوات العالية والتهديدات مع شريكه فى مصنع المواسير، وسمعت عن تكرارها فى أماكن أخرى.

عرفت بخبر مصرعه فى الصحف.. تجنبت الظهور فى الصورة على أى نحو.. وعلمت أيضًا أن البنوك استولت على كل ما يملك.. لكنها تماسكت تمامًا وظلت مفتوحة العيون.. متنبهة وعلى اتصال دائم بمحاميها تحسبًا لأى جديد أو تهديد.. ومع توالى الأيام والشهور.. مرَّ كل شيء بسلام، وأتيح لها أن تلتقط أنفاسها، وتأمل فى مستقبل أفضل.. تمرغت على صدرك كثيرًا وداعبتك كثيرًا ولاطفتك، ونامت على كل قطعة من جسدك.. امتلأت بك، ابتهجت، سمنت قليلاً وتألق وجهها الجميل أكثر، وعرفت الضحك بعد العبوس.

مضيت يا كسبان فى الطريق الذى رسمته لك.. دربك المدربون على الإتيكيت واللباقة وحسن المعاملة.. تعلمت القليل من اللغتين الإنجليزية والفرنسية.. أنت لم تكن راضيًا تمامًا، لكنك كنت فى حالة انجذاب نسبى إلى التعلم والاكتشاف.. كانت موافقتك معرفية، وكانت مسايرتك لها، نابعة من رغبتك العميقة فى المغامرة وفهم عوالم جديدة.. خاصة عالم الأغنياء، الذين اعتدت أن تتسقط لهم الأخطاء ويسيئك موقفهم من الحياة والبشر ؛ لأن معظم النماذج التى التقيت بها أو سمعت عنها، كانت على ألسنة المعذبين بأيديهم، والذين عانوا من استغلالهم وامتصاص دمائهم.. ولم يبلغك عنهم خير أبدا.. وفكرتك بلا شك كانت قاصرة ومنحازة وبلا مبرر كاف..

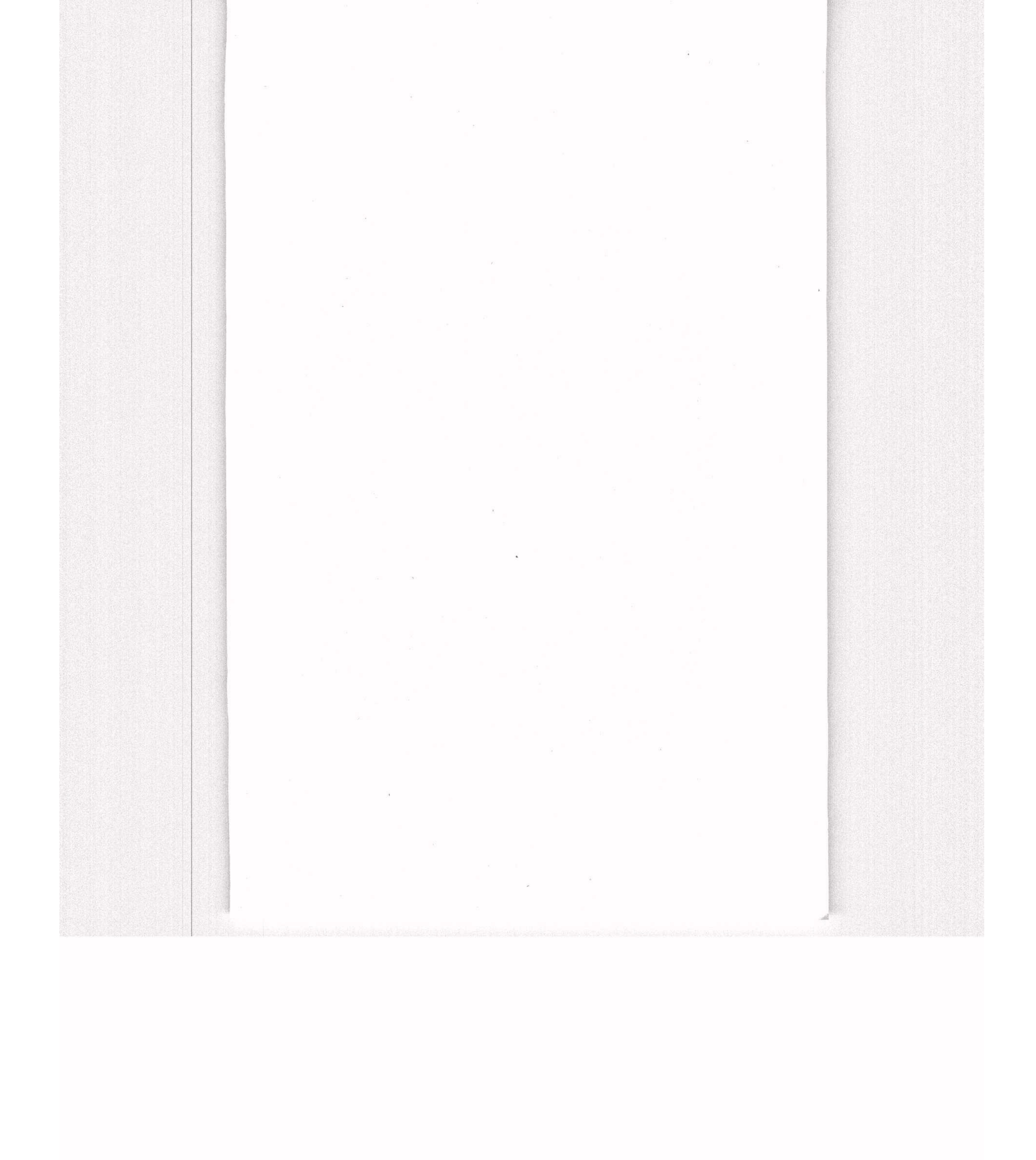
مرة ثانية وثالثة وعاشرة طلبت إليها ألا تنسب لك عملاً لا تعمله، وقولاً لم تقله، وصفة ليست فيك.. رضيت ووافقت وتصرفت بالفعل حسب هواك، لكن تنفيذًا لخطتها وآمالها فيك ولك.. سافرت معها إلى البلاد الأجنبية.. شاهدت ودهشت وفرحت.. دفعتها إلى عالم الخير والتبرع والمساعدة.. كان لك فى كل يوم عرض لفكرة جديدة لمعاونة شخص أو جماعة، وكانت فى الغالب تستجيب وتفرح برأيك بعد أن تتلقى الصدى.

قالت لك فى ليلة، وهى تجلس على الكنبة المتأرجحة، وأنت تهزها هزًّا رقيقًا:

ـ إحساسى ما خابش.. كنت دايمًا وحيدة وحاسّة إن كل الأصدقاء غرباء، وكلهم كذابين.. صور ولوحات وكلام معسول دون قلب أو



"وقد تجدك مع الفلاحين أو راكبًا جرارًا، أو تقرأ الصحف فوق السطح"



مشاعر حقيقية.. صفقات واتفاقات. وراءها تربص وسوء ظن.. أنا حاسة دلوقت إنى بقيت واحدة تانية.. "إزاى" مش عارفة ".. بس عارفة إمتى".. بعدما عرفتك.. إنت فيك حاجات كتيرة كويسة، واضح إنك مَانْتَش عارفها..

كانت تتعجب لأنك تغيب كل هذه المدة تحت الماء فى حمام السباحة.. وتبحث عنك أحيانًا كثيرة لتفاجأ أنك فوق النخلة الملكى، وقد تجدك بعد مدة راكبًا الحصان تجرى به فى حقولها.. وقد تجدك مع الفلاحين، أو راكبًا الجرار أو تقرأ الصحف فوق السطح، غارقًا فى شمس جميلة لا ترسل حرارتها وأنوارها لك وحدك، وقد تجدك ممسكًا بالبلطة، تمزق بها شجرة رأى المهندس الزراعى قطعها، فتطلب أنت تولى المهمة.

لم تكن تطيق أن تغيب عنها لحظة.. تكتشف مؤخرًا أنها تتعاطى نوعًا من المخدرات وتنهاها عن ذلك غير مرة، فلا تستجيب وإن كانت تدعى الإقلاع عنها.. تترك البيت وتعود إلى أولادك فى غير المواعيد التى نظمتها لزيارتهم.. فتستعيدك على وعد بالوفاء.. وعندما تكتشف من جديد ما تفعل.. تضربها.. تبكى.. تترك البيت من جديد.. وبعد عدة أيام تطلبك للحضور على عجل فقد كانت لأول مرة حامل، وسعادتها بلا حدود.. ترقص وتضحك وتقبلك، وتقزقز الفستق، وترقص وتشرب وتضحك، ثم تهجم لتقبلك.. كانت كما قلت أكثر منك جنونًا.. كانت مثل نافورة مبتهجة.. تفور.. وتفور.. تنثر ذرات الماء المغمورة بالضوء عاليا كحبات الماس.. دفعتك إلى حمام السباحة وقفزت فوقك.. قالت:

ـ سامحنى.. آخر مرة.. مش ح أعصى أوامرك أبدًا.. إنتَ حياتى وروحى وكل الدنيا.. إنتَ أبويا وأخويا وابنى وجوزى وحبيبى.. بس علشان خاطرى أوعى تغيب تانى مهما كان السبب.. إحنا مناسبين لبعض تمام.. أنت مجنون وأنا أجن منك.

بدأت تدريجيًّا تحبها.. منذ البداية أعجبت بها ورضيت أن تربط حياتك بحياتها.. استسلمت ـ مستمتعًا ـ لجمالها وثرائها.. كانت جذابة واستطاعت أن تحتويك وتجذبك لعالمها بسرعة، وأنت راض وفرحان.. بدأت تحبها.. وتدريجيا زاد إيقاع الحب.. وفى الوقت نفسه ظلت فكيهة خارج قلبك، وربما هذا هو السبب الذى جعل الطريق مفتوحًا أمام "جنان"، بصرف النظر عن الركن المغلق والمخصص بشكل غامض لسوسن، ابنة شيخ الخفراء.

(١٥)
حنـــان العـــم

حجرة النوم الجميلة يشملها الهدوء الناعم، تؤنسها أضواء حمراء من أباجورة صغيرة.. نسمات خفيفة تتسلل من النافذة المفتوحة فقط لمسافة قبضة يد.. أصوات الضفادع وصراصير الليل لا تؤثر فى قطيفة السكون، إلا كما تؤثر النجوم الصغيرة فى صفحة السماء المعتمة التى غاب عنها القمر منذ أيام.

الغرفة الفسيحة تبدو كأنها كون مستقل.. الباب مغلق بإحكام والسرير الكبير، ينافس أسرة الملوك.. غاب عنه صاحبه ولم تغب صاحبته.. إلى جوارها الرضيع غارقا مثلها فى النوم العميق.

طلبت "جنان" من ستوتة الخادمة رش الغرفة عدة مرات بمادة قوية، تروع البعوض والذباب، ولا تسمح لأى منها بالاقتراب من أجمل المخلوقات..

بالكاد يمكن للمستيقظ أن يرى الخيول التى تركض وتقفز على السجاد المحيط بالسرير، ويمكنه بالكاد أن يلمح على الضوء الشحيح صورة كبيرة لكسبان منفردًا، وصورة أخرى له مع "جنان" فوق طاووس كبير محنط يوشك أن يتحرك، ويمكنه بوضوح أن يرى كرسيين

كبيرين.. يغطس فيهما الجالس تمامًا، وكذلك الأبليكات واللوحات والدولاب الكبير، الذى لابد أن يمتلئ بالملابس والمجوهرات والبطاطين والملاءات وغيرها..

تخرج الأنفاس وتدخل فى سلاسة تامة، تشى بالاطمئنان والرضى.. فليس ثم هناء وسعادة يتمناها النائمان ولم تتحقق لولا غياب الزوج الطيب؛ الذى ذهب فى الصباح لزيارة أسرته الأخرى ويعود مساء الغد، وربما مساء اليوم؛ لأن الساعة تجاوزت الثانية، والسيدة لا تتصور ابنها فى الحلم رضيعًا ولا تراه صبيًّا، لكنها تراه شابًّا يافعًا يهبط من الطائرة بثقة وحيوية، بينما هى وكسبان يستقبلانه فى سعادة غامرة، وقد زين رأسها شعرها الفضى، وكادت العصا تسقط من يد كسبان، لولا أنه تعود أن يربطها بساعده..

تعانق ولدها فى سعادة معتقة وشوق بالغ، ولا تريد أن تتركه لحظة لأبيه.. إنها بالضبط اللحظة نفسها التى تسلل فيها من النافذة مرسى الجابرى شقيق زاهى.. الزوج السابق للأم المنشغلة بكل خلايا جسدها وأعصابها باستقبال ابنها العائد من الخارج، حاملاً أعلى الشهادات.. يتفجر الشباب من وجنتيه ويبرق فى عينيه، ويرفل فى حلته الرمادية الأنيقة وحركاته الرشيقة.

جلس مرسى على الكرسى الفوتى.. على حجره وضع الرضيع الذى لا يزال فى غمرة النوم، وبيده سكين حادة.. فجأة كح بقوة فاهتزت الغرفة واضطربت الجدران، هبت "جنان" تطل على وليدها ويدها على صدرها، تلتقط أنفاسها بصعوبة.. لم تجد الوليد فشهقت من هول الصدمة.

ـ ما تخافيش ، هو هنا معايا..

زادت الصدمة وارتج جسدها واختلت أعصابها ، وأسرعت تغطى العارى من لحمها..

ـ إنتَ مين؟

ـ بسرعة نسيتى أهلك؟

ـ لو سمحت هات الولد..

ـ الولد يا هانم فى حضن عمه..

ـ عمه؟!

ـ أيوه.. مرسى الجابرى.. الوحيد الذى يعرف بزواجك من "زاهى"..

ـ دخلت هنا إزاى؟

ـ مافيش أسهل من كده..

ـ ممكن الولد..

ـ .. بعد ما نتفاهم..

ـ نتفاهم!

ـ أيوه..

قامت من فراشها.. اختطفت روبًا معلقًا بكتف كرسى صغير من الخوص الرقيق.. أدخلت ذراعيها فيه ولفته على جسدها بسرعة.. بدا واضحًا وضوح حجمها الضئيل والمرتعد.. مدت يدها متوجسة تطلب الولد..

أشاح بالسكين فى وجهها:

ـ قلت لما نتفاهم..

ـ طب هاته ونتفاهم..

ابتسم، وهو يقول:

ـ ح أكون أنا الأكرم برضه.. اتفضلى..

أخذته وأسرعت به إلى السرير، أبقته فى حجرها، مائلة عليه بصدرها، سحبت البطانية عليها وعليه.

ـ قلت لى إنت مين!!

ـ الله.. الله..

تناهى إليهما الطرق على الباب.. تذكرت أن الباب مغلق بثلاثة ترابيس من الداخل، إذًا فقد دخل من النافذة، فكيف دخلها وهى فى الدور الثانى.. ازداد رعبها من الغريب، فالبداية فيها الدليل الكافى على إجرامه.

ـ هل تنتظرين أحدًا فى هذه اللحظة؟

وضعت الطفل بحنان ثم نهضت وفتحت الباب.. كانت قد ضغطت على أزرار الأجراس، فحضر رجلان وامرأة..

سأله أحد الرجال

ـ إنت دخلت هنا إزاى؟!

ضحك مرسى وقال للقادمين: أنا مش جاى أسرق.. كويس لما تِحْضَرونا..

أعاد أحد الرجال سؤاله: دخلت هنا إزاى؟!

ـ مش مهم.. المهم.. إنى باتكلم بمنتهى الذوق.. ومش عايز أسمع نفس لغاية أما أخلص.. أيوه يا هانم.. كل فلوس العيلة راحت مع "زاهى"، مافضلش غير اللى معاكى يا أم الغلام..

ـ والمطلوب!!

مضى يلعب بالسكين ويصوب على وجه كل الخدم، وعلى صورة كسبان، وصورتها..

ـ مالى.. كل اللى عندك بتاعى..

ـ إنت اللى كنت فى السجن؟

ـ عليكى نور..

ـ مش خايف ترجع تانى؟

ـ مالى.. حلالى..

ـ أنا ماعرفكش..

ـ ولا تعرفى أخويا!!

ـ ولا أعرف أخوك.. وامش اطلع بره.. بالذوق، بدل ما أطلب البوليس..

ـ ما دام قلت كده.. أنا مش طالع بره، واطلبى البوليس والإنتربول..

ترفع السماعة فلا تجد الحرارة.. تضعها فى استسلام

تنظر إليه فى غيظ، فيقول:

ـ أنا باحب الذوق، آخد حقى بالهداوة، عشان كده جيت النهارده مَادِدْ إيدى بالسلام والتحية والتمنيات الطيبة بالسعادة.. فى الوقت

نفسه وبمنتهى الذوق أطلب حقى.. وحقى على الأقل خالص.. خالص.. المصنع وشقة مصر. وافقتى، يا دار ما دخلك شر.. ما وافقتيش.. أنا مش مسئول عن النتيجة.. بالمناسبة.. أنا مش مستعجل.. بس صبرى قليل، زى النهاردة بعد أسبوع.. الساعة ٤ العصر ح أقعد ربع ساعة، نلت المراد كان بها، ما حصلش.

حرك السكين تحت رقبته دلالة على الذبح، واستطرد:

ـ "زاهى" أكيد حكالك عنى.. أنا ما عنديش يامّا ارحمينى.

اندفع خارجًا من الباب، وبعد أن خطى عدة خطوات.. عاد بسرعة، يسأل عن الذهب، رفضت جنان.. صرخ فيها.. وجه السكين فى اتجاه الولد.. خلعت بعض ما تلبس.. سأل عن الصندوق، أنكرت.. أعلن عن كرمه وروحه المتسامحة.. خرج ليترك السيدة فى حالة ذهول دائم وفزع لانهائى، ثم دموع وانهيار.. أسرعت ستوتة تخفف عنها.. أعد الخدم بسرعة كوبين من عصير الليمون.. وضع أحد الخدم فى المسجل شريط قرآن، يتلو بعض الآيات بصوت عذب ومنخفض.

لم يعد هذا وقت الدموع انقلبت الصفحات.. أغلقت مؤقتًا أبواب الأمان، وانفتحت إلى مدى يعلمه الله أبواب الهم والقلق.. فى عز النوم والأحلام.. طلعت السموم وبانت الأنياب وفرد الشر عباءته فى الأفق.

ما الذى يجرى فى الدنيا؟.. لا شىء يدوم أبدًا.. كل شىء فيها مهدد، وقابل للتلاشى أو التداعى.. كل شىء كالثلج.. يبقى بحوزتك بعض الوقت ثم يذوب.. لا.. ليس كالثلج، فأنت تعلم متى يذوب.. لكن اللحظات الجميلة معرضة للانكسار فجأة.. وفى الوقت الذى

تكون فيه قد أيقنت بالسلامة الدائمة والهناء، وتوفرت كل أسباب السعادة.. يخرج بغتة من قلبها ما يضربها.. الحياة فيها الموت.. والسلامة فيها الخطر، ونحن لا نعرف.. ولا نفهم.. ظروف الحياة ليست كالليل والنهار.. ولكن أليس بالإمكان ألاَّ يكون هناك أعداء؟.. ما أبشع أن يكون هناك متربصون يتأهبون للانقضاض عليك.

ها هو مرسى يخرج فجأة من السجن، يخرج خصيصًا لكى يبحث عنى.. لكى يخنق سعادتى.. لقد دبرت أمورى مع "زاهى" بحيث أكون مجهولة تمامًا بالنسبة لأسرته، لأن الصفحات التى انكشفت لى من كتابه كانت مدعاة للقلق، تحمل فى طياتها أسباب الخطر وبذوره، لكنه رغم كل حيطتى عرف.. ضاع حذر سنوات طويلة على لسان "زاهى" بكلمة واحدة، حملت الشر إلىَّ.. بالضبط فى الوقت الذى قلت فيه إن السعادة الخرافية التى لا يدركها إلا القليلون قد عرفت طريقها إلى، وهى مؤمنة ومحروسة؛ إذ تحط فى حجرى وقلبى وأنا فى معزل عن العالم..

آه.. ليس هناك شخص فى معزل ولا فى جب.. من يريد الحياة فهو مؤهل للخطر فى أى لحظة، مؤهل للانتصار ومؤهل للانكسار مهما كانت ممتلكاته وقدراته.. لا شىء حصين.. أين أنت يا كسبان؟ ليتك لا تغيب أكثر من هذا.. لن أسمح لك بالغياب حتى تنقشع الغمة.. والغمة ثقيلة بأكثر من حجمها الظاهر، ولن أسمح لهذا المجرم الدنئ أن يهدم عشى أو يمس شبرًا مما أملك.. إنه حقى وصبرى ومعاناتى..

أنا لم أسع لأخيك.. وأنا لم أحبه.. وتخليت عن كل شىء وتفرغت له.. كنت أخفف عنه آلامه، وأضمد جراحه.. كان يعمل كثيرًا ويطمح

إلى بلوغ قمة السلطة والمال.. فيأتينى من القاهرة محملاً بالهموم، وأرده إليها جديدًا صافيًا متحمسًا للعمل، محتشدًا بالأمل.. المعركة ستكون شرسة بقدر أحقاد مرسى.. مطلوب سلاح واتصال بالمحامى والبوليس، وتجهيز المزرعة بقوى الأمن.. يجب أن تكون لى مخالب؛ حتى أتمكن من صد هذا الشيطان.. الآخرون هم الذين يفرضون سوء الظن واللجوء للشر.

لم يحضر الأسبوع التالى كما وعد، إذ كان يعلم تمامًا أن كسبان والبوليس فى انتظاره، وبعد يومين قال ذلك لهما عبر الهاتف، وقال إنهما يدفعانه إلى طريق الشر.

بعد أسبوع اتصل، وقال إنه سيؤجل المشروع إلى أن يعود من ليبيا، بعد إتمام مهمة تستغرق ثلاثة أشهر.

لم يترك كسبان بيته لحظة واحدة، ولم تغب عيناه عن زوجته وولده، وإن خفت القوة البوليسية الرسمية إلى أقل مستوى.

وطلبت جنان زيادة عدد رجال الأمن الخاص.

بعد أسبوعين كان مرسى فى الساعة نفسها بعد منتصف الليل وفى الحجرة نفسها، بعد أن ترك رجاله مشغولين بتقييد رجال الأمن، وبهدوء حمل الرضيع من سريره الصغير المجاور لأمه، وقبل أن يصل إلى الباب انطلقت صرختها وهب كسبان.. وجه مرسى سكينه إلى الرضيع.. طلب منه كسبان وضع الطفل فى سريره إذا كان رجلاً.. حطه مرسى على الأرض واستقبل كسبان بالسكين، تفاداها كسبان.. دارت المعركة حامية بين الرجلين، وبدا أن لكل منهما قدراته وقوته

وأساليبه، ومع الوقت رجحت كفة كسبان، إلى أن طارت السكين، وطار وراءها مرسى و"جنان" التى كانت الأقرب، ولحق بهما كسبان متأخرًا قليلاً بسبب ضربة من قدم مرسى دفعته إلى الأرض.. وقبل أن تمسك "جنان" السكين، كان مرسى قد التقطها وصوبها إلى ذراعها فأصابت قلبها فسقطت.. فوجئ كسبان وكذلك مرسى..

توقف كسبان مفزعًا وأسرع مرسى بالقفز من النافذة، وزعق كسبان يدعو الخدم، ومن جديد كانت الهواتف مقطوعة، فأسرع يحملها بالسيارة إلى أقرب مستشفى، لكنها أسلمت الروح مع أول لمسات أيدى الأطباء.

(١٦)

حريـــر المسافـة

هل كان رحيل "جنان" أقسى أحزانك؟.. بدا لنا الأمر كذلك.. لم أكن أتصور أنك تحزن بأكثر مما حزنت يوم رحيل والدتك وحزنك دائمًا مكتوم، ليس فى حياتك غير ثلاثة أحزان تصاعدت فى التعقيد والعمق، أولها: يوم وفاة والدك ونهب العمدة أرضكم، وثانيها: يوم وفاة أمك. وثالثها: تعصف بك بعنف أكبر، خاصة أنك بمرور الأيام أحببت زوجتك جدًّا وأحببت ولدها جدًّا، ورغم أن لها والدين وإخوة، فقد كنت تستشعر من معاملتها لك أنك الأب والصديق والزوج والأخ.. وكأنها يتيمة.. بلا أهل ولا أحباب، وأنت كل العالم القريب والغريب. كانت زهرة جميلة وكريمة وحنون.. لا تملك إلا أن تحبها من اللحظات الأولى.

خرج مرسى من السجن عازمًا على أن يتحرك فى اتجاهكم منذ اليوم الأول لمعانقته الحياة والحرية، وكان قد قرر أن يقدم على ذلك منذ بلغه موت أخيه، واستيلاء البنوك على كل ما يملك تسديدًا لبعض مالها عليه. ولم يكشف لأسرته عن الزوجة الثانية حتى تبقى فى انتظاره وله وحده.. كان يحكى لزملائه فى السجن عن الخميرة، التى يعدها لنفسه عندما يخرج..

ـ الطبخة على النار ح تبقى جاهزة للأكل يوم ما أخرج.. ح أبقى أنا لوحدى على السفرة..ربعها بس يكفينى أعيش طول العمر ملك.. كفاية الشقة بس، تجيب لها أرنب..

لم يكن يعلم أنه لن يرى الحرية إلا عدة أشهر ليعيش بعدها طول العمر سجينًا وليس ملكًا، بعد أن طعن "جنان" طعنة نافذة فى غرفة تفتح على الموت، وقد أودت بها.. كانت تنوى، وهى تغترف من السعادة أن تحرص على عالمها الصغير، وتتخصص فيه وتمنحه أحاسيسها كاملة ونور عينيها؛ ليظل عالمًا من الجمال والهناء والأمل.. يمتلك كل أسباب العطاء والحب لكل من يتعامل معهم.. سواء فى المصنع أو المزرعة أو الجيران.. والمنتفعين بمشروعات الخير التى وجهها إليها كسبان، وقد فوجئت بروعتها وأثرها الهائل فى نفسها، ومدى البهجة التى يفجرها بأعماقها..

قال لك مرسى فى أول لقاء، وكان خارج الفيلا:

ـ كل مالكم.. مالى لأنه مال أخى..

ـ لكنه باسم "جنان"..

ـ العيلة كلها بقت على البلاط..

ـ ما ليش علاقة بكل ده..

ـ لازم تقوم بدورك.. إنت جوزها..

ـ مسائل تخصكم.. سَوُّوها مع بعض..

ـ سهل قوى رجلى تجرى على الغلط..

هنا ييجى دورى..

ـ يعنى..

ـ اتناقش معاها زى ما أنت عايز.. لكن أى غلط فى حقها ما أعرفش أبويا..

ـ خليك مع الحق..

ـ طبعا.. إذا كان حق بصحيح.

ـ بصحيح إزاى؟

ـ الورق!!

ـ مَا عْرَفُوش..

ـ مُزَوَّر؟!

ـ أكيد..

ـ إرْفَع قضية..

ـ مش فاضى..

ـ بتقول لسه طالع..

ـ ما يكسرش عينى

ـ كفاية لحد كده.. سلام

هذا هو اللقاء الوحيد.. نقلته بالحرف لـ "جنان".. قالت لك:

ـ لا تشغل بالك.. أعلى ما فى خيلهُ يركبهُ.

فوجئت به يخطف ابنها وهى نائمة، وجرى ما جرى.

لما حكت لك.. أقسمت بينك وبين نفسك أن تعلمه الأدب.. لكنك كنت نائمًا عندما حمل الولد.. اختلف الموقف قليلاً عما لو كنت يقظًا..

ومتأهبًا.. واعترف أيضًا أنه قوى، ومتمرس وَمُشَبَّع بالشر.. فكم رعى فى بدنه وروحه، وتذكر أنه خدعك عندما ادعى عزمه على السفر إلى ليبيا لثلاثة أشهر، ثم انقض بلا رحمة.. الأمر أولاً وأخيرًا أمر الله.

قلت لك: لا تحزن يا كسبان كل هذا الحزن، فقد بدوت كقنبلة محمومة وممتلئة حتى حافتها بالديناميت.. تضطرم أعماقها وتمور بما تحمل ولا تبين.. ورغم حزنك الثقيل الأسود الذى أكل كبدك أربعين يومًا على الأقل.. تصرفت بحكمة وتوازن.. هل تراجع حسك الأحمق..

لعلها الأيام التى تغير وتذيب، لعلها التجارب والخبرات التى خلقت منك إنسانا آخر، لابد أن إرادة الله تقف وراء ذلك.. راغبة فى أن تعيد تشكيلك على هيئة أخرى، لا تنفصم تمامًا عن ذى قبل، ولكنها تفتح صفحة جديدة فى كتابك العامر بالمفاجآت.. لقد عانيت طويلا فى حياتك، وصبرت دون مضض أو استياء.. بل إنك لم تصبر لأنك لم تستحضر فى وجدانك فكرة أن الحياة قاسية، على العكس من ذلك.. فقد كنت متفائلاً وراضيًا تستهين بكل عقبة ولا تنزعج من الحرمان، بل لم تكن تشعر أنه حرمان، ولم تحس يومًا أن غيرك أفضل منك وأهنأ عيشًا.

مرت الأيام.. كأنها تتسلل من خلف أسوار وعينا وحساباتنا.. زلزلك ما أنبأك به المحامى، وكان طبيعيا أن يزلزلك.. وبقيت أياما تدهش للإلهامات الإلهية التى دفعت "جنان" بعد أن زارها مرسى الجابرى لاستدعاء المحامى، وتوزيع ما تملك بحيث تكون المزرعة لك وشقة القاهرة والمصنع للرضيع شادى، وما بالبنك وقدره مائة ألف جنيه لوالدها وأخواتها.

ما زلزلك ليس ما كتبته لك وللآخرين، بل هذا التصرف الغيبى، الذى قرأ المستقبل واستشعر الخطر، فأسرعت بحسها المرهف وشفافيتها توقع على ثقتها فيك.. ما هذه الفيوض الإلهية وهذا الدعم الكبير من الله إشفاقًا على البشر وحماية لهم من بطش الشياطين والنفوس المريضة..!! ظللت أيامًا فى شرنقة الدهشة، إلى أن أدركت حتمية الخروج والعمل والتحرك، فالحياة تدق الأبواب وعجلاتها لا تعرف التوقف..

سلمت المبلغ النقدى، وكان بالتحديد ١١٩٥٠٢ جنيها لوالد "جنان" وأخيها، وطالبتهما بالاستمرار فى إدارة المصنع.. كانت قد تركت شيكًا على بياض لصرف المبلغ، فصرفته وسلمته بالكامل لهما وأغلقت الحساب.

اشتريت بربع ثمن المزرعة عشرين فدانًا، نصفها من أرض العمدة الذى أصاب الشلل جانبه الأيمن، وعزمت مديرية الأمن على تأجيل البحث عن بديل لعدة أشهر.. بعد أن عينت ولده طارق إثر خروجه من السجن وتحسين علاقته بالمسئولين.. لكن المسئولين تغيروا وألغوا قرار تعيينه.

سعيت لبناء مصنع فى البلد لإنتاج الحرير.. وخصصت خمسة أفدنة لزراعة شجر التوت وتربية دود القز، والمكسب من البيع نصفه لمساندة الجمعيات الخيرية، واشترطت أن يعمل بالمصنع أبناء القرية والقرى المجاورة، وليس به الغرباء إلا الخبراء ورجال الإدارة. فكرة جميلة وجديرة نالت استحسان كل الناس.. ورجعت أنت بكل فكرك وقوتك

للزراعة.. وبين أحضانك زوجتك فكيهة وجميع أولادك الأربعة.. الثلاثة الأوائل وشادى

لكن دهشتى التى ستظل لصيقة باسمك، هى دفعك أموال لإخوتك تساوى ما كان سيؤول إليهم من ميراث أبيك، لو لم يكن العمدة قد التهم الأرض، وهذا المركز الثقافى والرياضى الرائع الذى أنشأته، ووفرت فيه جميع الألعاب، بالإضافة إلى مكتبة وسينما ومسرح، وتعاقدت مع متخصصين لتدريب الأطفال والشباب على الفنون، يفتح أبوابه كل يوم من الخامسة إلى العاشرة.. لا أبالغ إذا قلت إن المركز أهم من المصنع؛ لأن الشباب يفرغ فيه الطاقات ويكتسب الخبرات.. وأنت نفسك تشارك فيه وتدعو الكبار للمشاركة..

عجيب.. حقًا عجيب.. أنت شخص يعيش خارج الزمان والمكان.. شخص غير عادى فى زمن وضيع.. شخص خارج سياق القيم السائدة، التى أرغمت البشر على ضياع الأصول والحقوق فيما بينهم.. ولم يعد أحد يتذكر أصحاب الفضل أو الدم أو القرابة أو يرنو لفقير أو مسكين وذى حاجة.. عجيب لأنك لا تعمل طبقًا للسائد، ولابناءً على المفردات التى يتعامل بها الجميع.

أنت شخص غير طبيعى، كل ما فيك يدل على أنك مجنون، وفى الوقت نفسه إنسان رائع، توليفة جديدة من بنى البشر.. تعرضت مع "جنان" لعمليات غسيل متواصلة، غريبة وجديدة تمامًا عليك، لكنك دائمًا كما أنت.. الجديد فقط هو تناقص الشوائب وإزالة النتوءات.. الجوهر كما هو، والشكل أصبح أكثر أناقة وتهذيبًا.. أى عبقرية تلك التى اختارتك بها "جنان".. أى توافق وانسجام!!

حصلت على الثانوية، ولم تكن قد دخلت الجامعة بعد.. تعلمت اللغة العربية وأجدت الإنجليزية وألممت بالفرنسية إلى درجة طيبة، لكنك لازلت الحر المعتز بنفسك، الكريم الحنون.. البسيط المتواضع رغم ما لديك من أموال.. لم تغيرك كل الطبقات التى أضيفت إلى بللورتك الفطرية..

كنت ولا زلت متنبهًا لقشر الموز الذى تلقيه الحياة فى طريقك، فلم تنخدع أو تسقط أو تستدرج.. تقبلت بعض الأمور بمزاج ورفضت الأكثر، الذى رأيت أنه سيهدم بنيانك الداخلى، فكيف عرفت هذا البنيان؟ كيف اكتشفته؟ وما ملامحه؟

أثق أنك لا تعلم شيئًا.. أنت بالفطرة تمضى.. بالإلهام تسلك، ولست من الحماقة حتى أسال لماذا لم يخلق كل الناس على شاكلتك؟.. وكم تمنيت أن أكون مثلك.. أؤمن أن الفلسفة الإلهية تتعمد ألا يكون البشر نسخًا من أصل واحد، وألا يخضعون لنمطية معملية.. ولا يستطيع أحد أن يخرج من جِلده الأصلى، مهما حاول.. فليغير إذًا جلوده وأقنعته كما شاء..

قل يا كسبان كيف بإمكانك أن تحتفظ بهذه المسافة بينك وبين الدنيا وإغراءاتها؟.. من الأنبياء من لم يتمكن من الحفاظ على هذه المسافة بينه وبين الدنيا.. إنها عبقرية، ومنحة إلهية لا تتوافر للكثيرين.. هل تعرف أن ما تفعله يدل على قدراتك العالية وملكاتك النادرة؟.. وقد طالبتك بأن تعلمنى كيف أقاوم وأتماسك وأبدى قدرًا كبيرًا من اللامبالاة إزاء ما تلوح الدنيا به، لست ضعيفًا إلى حد كبير، لكنى كثيرًا ما أقبض على نفسى متلبسًا بالسقوط فى حبائلها.. بينما ترقص حولى وأمام

عينى بصورة مثيرة، فلا أملك أن أتحدى دعوتها، ولا أن أرد سحر أضوائها، التى تطوينى وتحملنى منزوع السلاح والإرادة..

هكذا سافرت إلى البلاد العربية الخليجية للعمل، وهكذا تزوجت من الفتاة التى لم يكن من المناسب الزواج بها، هكذا وضعت أموالى لدى اللصوص الذين وعدونا بأكبر الأرباح.. وهكذا.. وهكذا انتهيت إلى إدمان الدروس الخصوصية.. حتى لقد اشتريت سيارة للمرور على الطلبة، والحصول على أجور عالية لقاء الدروس المنزلية. لكن الخسائر أيضًا كثيرة، فأولادنا ليسوا كما نود، وبعضهم يرسب، ومنهم أولاد يعانون من التخلف الذهنى، والخلافات كثيرة مع أمهاتهم.. الحمد لله.. أنا لا أشكو، ولكن حالتك دائمًا تعيد إشعال النار، وتؤجج الكامن.

كم هو رائع ذلك المقود الذى تمسك به جيدًا وتقبض به على فَكِّ حصانك، فلا ينطلق إلا حيث تريد، ولا يميل إلا تبعًا لرغبتك، وإن كنت أثق أن ما بك من خصال ليس من صنعك، وطريقك ونهجك خَطَّهما الله.. وأراد الله لى طريقًا آخر.. آه.. فهل جنيت من تعلمى ومؤهلى وأسفارى ودروسى ربع ما جنيت أنت؟.. اللهم لا حسد ولكنه سؤال لا أوجهه إليك، إنما إلى نفسى أوجهه، بل أدسه فى أحشائها، لعلها تستيقظ.. رغم ذلك، فأنا أفضل من غيرى وأرحم، وما أصابنى أقل مما أصاب آخرين..

كثيرًا ما أفكر فى حالك وحالى، هل نحن متوازيان أم متقاطعان أم متقابلان أو متعارضان.. أم أن ما بيننا علاقة تماس، أو تداخل أو أننا دئراتان متعانقتان، أم أننا غريبان تمامًا، وليس ثم علاقة إلا أنك ابن خالى وأنا ابن عمتك؟!!

(١٧)

حضرة العمدة

بذلت جهدًا خارقًا كى أمنع نفسى منذ بداية هذا النص من البوح بما آل إليه حال كسبان حتة، وبما أصبح عليه حال القرية بعد أن أصبح العمدة.

تكاثرنا عليه أنا وبعض متعلمى القرية ورجالها ذوو المكانة الاجتماعية والرشاد، وأقنعناه بالترشيح لتولى العمدية.. رفض.. وقاوم وتهرَّب ووعد وعاد فتهرب مصرًّا على أنه لن يلتفت إلا للأرض ورعاية الأولاد.. أكدنا له أن القرية مسئولة منه، وهو أكثر من يستحق القيام بهذا الدور، أخيرًا وافق، ولما ظهرت النتيجة كانت ماحقة، إذ لم يحصل منافسوه إلا على أصوات قليلة للغاية..

طلب حشاد شيخ الخفراء والد فتاته الجميلة سوسن أن يتراجع، ويعلن استقالته وتفرغه لأملاكه، رفض كسبان وطلب إليه أن يستمر إذا كان يحب، وأكد كسبان له أنه يسعد بوجوده جدًّا، وأنه لم يكن أبدًا كالعمدة، وكان دائمًا على قدر من الاحترام لولا موقفه منه عندما تقدم لخطبة ابنته، ويعترف كسبان بأن لديه الحق، فمن أكون.. على الأقل فى ذلك الوقت؟

هل كنت يا كسبان تصر على أن يعمل معك لتصدر له الأوامر وتتحكم فيه؟ أم استبقيته لكى يجلس دائمًا بالقرب منك وعلى كرسى

المشاهدة المستمرة لك، وأنت سيد البلد وصاحب الكلمة النافذة التى لا يملك أحد ردَّها؟ أم أنك حقا كنت مؤمنًا بدوره مقتنعًا بشخصيته وطهارة لسانه ويده، أو أنه فى أحسن حالاته كان أفضل من العمدة التعس..

لا أسىء الظن بك.. لكن مرور الأيام لا أظنه قد محا الطعنة تمامًا، ولقد سألتك عن ذلك فأقسمت، وأنا أكاد أصدقك، لكن أعماقى لا تسلم بسهولة للاعتراف بوجود أشخاص أنقياء إلى هذه الدرجة.

إذا تجاهلت هذه المسألة ولو مؤقتًا، وداخلنى إحساس عارض بصدقك.. فهل يمكنك الاعتراف بأنك لازلت تهفو لابنته سوسن، التى لم تقع عينك على مثل جمالها..؟

هل تجسر على الاعتراف حتى لنفسك بأنك أحببت "جنان" جدًّا وأسفت لفراقها جدًّا جدًّا، لكنك لم تنس تمامًا وجه وقوام سوسن؛ وكم زارتك فى الأحلام، وطافت بخيالك وأنت يقظان! وكم طلعت عليك وأنت فى عز العمل الشاق أو لحظات التفكير! وحتى فى بعض أوقات الغضب لأمر من الأمور..

كم كنت تأمل ألا تكون قد تزوجت لتسرع بعقد قرانك عليها، واثقًا من ترحيب شيخ الخفراء وزوجته وكل أهل البلد! لكنها تزوجت وسافرت مع زوجها زميلى مدرس الرياضة الطيب بشندى البكرى.

لم تعترف لأحد أبدًا أنك تحلم بها أحيانًا.. وتراها كما تشتهى.. تسعى إليك مادة يديها، تقول لك: بقيت حرة يا كسبان.. فتأخذها فى أحضانك وتستبقيها فيها وقتًا لا تدرى أنه قد طال.. أنت لا تحلم فقط، بل إنك عازم دون أن تعترف لأحد بأنها إذا حدث وتحررت بالطلاق أو بغيره - دون شر - لدعوتها للزواج بك، حتى لو مرت عشرون سنة..

كم لوحت بينى وبينك بأطياف من هذه المشاعر تجاهها.! وكم بدا عليك الاضطراب، إذا مر اسمها بمسامعك!! كنت ألقيه عليك لأقيس النبض وأتحسس الحرارة.. الدهشة تتملكنى طويلاً، لقد جمعتكما لحظات قليلة، شهدت تلاقى العيون، وتبادلتما بعض العبارات العادية والحيية، فكيف لها أن تجوس خلال قلبك على هذا النحو، وتقبض عليه وعليك، وتأسرك لديها بينما هى بعيدة عنك جسدًا وروحًا؟ الغريب أنك تثق بأن ما لديها أكبر مما لديك، وأنها مؤرقة بحبك، أكثر مما أنت بحبها مؤرق، وأنها تهفو إليك، كما أنك بالقطع تهفو إليها..

كيف نبتت كل هذه المشاعر الموارة؟.. وما هذه القوة التى تتسم بها هذه المشاعر فى نفسه رغم زواجه بغيرها وإنجابها ولدًا له، وكثرة ما يمر به من تجارب وخبرات، ورغم مرور السنين وعمق البعاد؟ أمر يستثير العجب.. حب لا مبرر له، وشوق لا يُفَسَّر، لكن إذا حوَّم طيفها بخاطرك، سكن واستقر وتضاءل واضطرب وربما ارتعد. كأن السموات كلها تناديه وتأمره بالتأهب لاستقبال خبر.. فيستدعى اللحظات الجميلة من مكمنها السحيق، وتسرى فى خلاياه أحاسيس راعشة وغريبة.. صوتها لا يزال يتهادى فى أذنيه وروحه كالعبير، حين يمس الأنوف المتلهفة للبشائر الأولى للبهجة.. أو كالندى حين يمس شفاه الورد المشبوبة شوقًا للرى..

ليس من سر لذلك كله إلا سحر الحب، الذى فتحت سوسن نافذة الأمل فى أن يطل عليه يومًا ما.. مجرد الأمل فى الحب.. وليس باستطاعة من لم يعش هذه اللحظات أن يدركها أو تجد السبيل إلى قلبه المجفف.. هذا الأمل الذى يمثل السكينة النورانية، التى يبثها قمر مشرق فى عتمة أعماق روح هائمة وتعسة..

عندما تطل بوجهها البهى فى خواء الذاكرة، ويتخلى عن كل ما يشغله ليتأملها، ويتحدث إليها وينصت لبلاغة نظراتها، مغمورًا فى فيض مشاعر جديدة وغريبة، سرعان ما يهدأ ثم يبادر نفسه باللوم، إذ لم يبذل ما يكفى من الجهد ويمضى طويلاً فى المحاولة للتمسك بها، ويواصل تأنيبه غاضبًا من تخليه العاجل عنها، وعودته منذ بداية الطريق.. ليس هكذا يكون التصرف فى المواقف النادرة.. ليس هكذا يكون التعفف أو الكبرياء.. كان عليه أن يطرق الباب، ويواصل الطرق إلى أن ينال بغيته؛ خاصة أنها رحبت وانتظرت الفرصة للمساندة.. هكذا يجب أن يكون الحب.. الذى لم أجربه.. ولأعترف بأن تأنيبك لنفسك زاد بعد فقد "جنان".. فهل كنت تريد أن تمسك بكل منابع الحب، حتى إذا فقدت أحدها غذاك ورواك ثان وثالث؟!.أصدقنى القول يا كسبان ألم يدر بخاطرك لحظة أنك ضيعت الحبيبة ـ حب جنان، بل شخصها نفسه، وحب سوسن مع احترامنا للقدر والمكتوب؟

مضى الشاعر يقول عن الحب وسيرة الحب ورجاله، ومضى الشاعر يحكى سيرة كسبان حتى أصبح العمدة.. المحب للحياة والناس والأرض.. وسوسن..

نادانى ابن أخى عصرًا، وطلب منى أن أحضر رهانًا جديدًا، ينفذه العمدة ضد متحديه فى طلوع النخل.. ابتسمت وأنا أتساءل:

ـ أما آن يا كسبان أن تتخلى عن هذه الهواية؟!

إلى متى ستظل أيها الرجل مفعمًا بروح الشباب والأمل، محتشدًا بالوهج والمغامرة وحب البشر والحياة؟.. متعك الله بالصحة.. إن ما تفعله يا ابن خالى، هو عين.. عين الحياة.

رعى الله من كان على غير سبيلك.. من جانبى على الأقل، سوف أحرص على شحن البطارية، التى سرعان ما تفقد قدرتها على الأمل..

أنا قادم إليك لأحضر مشهدك، وأنت تتحدى بقلب مغمور فى آبار الحب الصافى.. تقدم على منافساتك الملهمة.. تستنفر الهمم الناعسة..

أنا قادم إليك حيث تتبعك الشمس والوفاء والجمال والأطفال.. حيث تنثر السماء عليك الندى والزهر.. فينبت تحت قدميك عشب الأمل والصبر، ويملأ الأفق بهاء لا نهائى ينبع من روحك المتوثبة..

أنا قادم إليك، وأثق جيدًا أن أبناء القرية والقرى المجاورة سيكونون حيث تكون رجالا ونساءً وأطفالاً وشيوخًا.. حمائم وخيولاً وعصافير وأشجارًا وأحلامًا وأيامًا مقبلة ودكاكين وسلالم خشبية، بهائم وفئرانًا وديدانًا وأشعارًا وموسيقى وأحضانًا وقبلات وضحكات ورغبات وغربانًا وقطعانًا من الماعز والخراف والقطط والأسماك والحصى والنمل والكراسات المدرسية..

ستكون حولك ترقبك باعتزاز حتى الأعضاء الجسدية والمعنوية لمن لم يستطع الحضور، ستكون أمامك وخلفك آذان ونهود وسيقان وأذرع وقلوب، وخصلات شعر وشفاه وخدود وبطون وظهور وأجنحة وغيطان وجلاليب خالية ومكاحل وشوارب وعرق.. وآمال وتفاؤل وسنوات عجاف ومشاعر صادقة ورحيق سنوات محبطة.

ستكون حولك نجوم هاربة وظلال مختبئة من الشمس وأدعية وكتب ممزقة ونعال، فقدت أصحابها ومآذن لمساجد وعتبات ومصاطب وطلمبات ونوارج ومطارح للخبيز ومواجير العجين، وكل صناع الحياة ومحبيها فى شكل فراشات ملونة.

.. موفق دائمًا يا طالع النخل ومجمع القلوب.

